منحنة فتاة

الكاتبة :
خديجة بنت سيدينا

عنوان الكتاب :
منحنة فتاة

ر.د.م.ك : 978-2-37711-099-5

الطبعة الأولى : **جانفي 2022**

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة ©

خديجة بنت سيدينا

منحنة فتاة

حتى يظلّ النخيلُ وفياً لسمْته

الكلمات القانية
لسيرة أمّ طالبة بين العواصم والمستشفيات

منشورات
الشاعرة خديجة
بنت عبد الحي

ليس تقديماً

ذات مرَّة، وكان الوقت عصراً في «زيرة المداح»، ببيداء منطقة «الآبار» في مقاطعة واد الناقة؛ عثرت على مخلاة ساقطة على أثر دارسٍ، وحين فتحتها وجدتها مليئة بالفستق فالتهمتها لتصيبني بالخدرِ جراء أيام الجوع حتى نمت لأستيقظ منتصفَ الليل على رائحةِ العطر والقرنفل والبخورِ وهمسٍ غير بعيد. وكانت تقول لصاحبتها «أسرعي بتبديل الملحفة حتى لا يستدلون علينا برائحتها».

أحكمتُ في رأسي إحداثيات المكان، وزحفتُ بهدوء حتى ابتعدتُ فأسرعتُ الخطى لأخبرَ «الرجال»، الذين جاؤوا واستخرجوا كنزهم، ولم أحصل على أي مكافأة بل ربما أصابتني لعنة الكنوز، ففي الغد ضربتني صويحباتُ العروس حتى فقدت الإحساس برابعة النهارِ.

لقد مضت «أيام الأسبوع»، الطقس الأكثر غرائبية بين أعراس العالم، وتستعد «الفتاة» لعبور سنة أولى زواج، وما يزال عليها أن «تُثبِّتَ» حتى «تُثبَّتَ» كعتبة دار في مفازات البدو الرحلِ.

سيكون عليها أن تخوض تحديات عديدة، تبدأ بعالم شبه سريالي في مختبرِ اجتماعي شغال بالعادات والقيم، ولكنَّ هذه «الفتاة البيظانية»، التي تبدأ لــمّ الشمل بالفرقة الرمزية «الترواغ» هيَّ ذات الفتاة المترحلة أو المرضعة على «ظهور العيس» تحت القيظ الرهيب والشتاء القارس المشيب، هي منجبة «علماء شنقيط» وأدبائها وفرسانها وصفات أخرى.

إنه ما من «التحام أسريٍّ» يبدأ بفرقة رمزية غير هذا الذي تهندسه أو تطلسمه أو تبلمسه المرأة الصحراوية، الأيقونة الساحرة في الجمال، الأخلاق والتربية، الصمود والتحدي الخرافيِّ أمام كل الظروفِ، حتى أن هذه التي كانت يوما ما معبودة مجانين وفرسان وشيوخ ومجاذيب وصلحاء وبدلاء، ارتقت إلى شرف عابدة توطِّن لحظاها في قلبِ الشريِك، وتعطر الدرب أمام ثمرة كبدها مهما كانت قوة المعاناة، واستشواكِها على مسافة الحفرِ.

لا أعرف لماذا استحضرت اللقطة الأولى من واقع حياتي في الطفولة، وأنا أقرأ هذا الكتاب «منحنة طالبة»، والذي اختار له الناشر عنوان (حتى يظلّ النخيلُ وفياًّ لسْمته... الكلمات القانية لسيرة أمّ طالبة بين العواصم والمستشفيات).

على مدار ثلاثة عقود حاولت ضمن «شلة الرفاق» الانحياز ثقافياً إلى «قضايا المرأة» الصحراوية أو الموريتانية (وتعبير الصحراوية أفضل

وأدق في نظـري)، وبـدأت بشـيئين: نظرياً فتح أول حوارٍ أو سـجالٍ حقوقي مكتوب عن المرأة في تاريخ الإعلام الموريتاني من خلال مقال «نعم لحرية المـرأة.. ولكن»، وميدانياً من خلال حملة المؤازرة للنسـاء المبدعات، والأمهات الكادحات والنساء المناضلاتِ، بل وحيثما كان للتاء المفتوحة أن تتمدد على خارطة الحقّ، الحقوق، الحرية.

لقد كانت المعاناة شديدة في دعم الشاعرات والأديبات والكاتبات، والفنانـات، خاصـة رائـدات تحديث الأغنيـة الموريتانيـة، وكانَ الرد الاجتماعي أجاجاً في بعضِ تجلياتهِ حين تعلق الأمر بالمشاركة الحاسمة إعلاميـاً ودعائياً في الدفع بالمرأة نحو الوظائف، المسـؤوليات، القيادة والريادة في الإدارة والتسيير والسياسة.

لقـد كان لنضـال رفاقـي مـن الواجهـة والخلفية، دور محـوريّ في أن تصبـح «دولـة الكتاتيب» نموذجـاً يُحتذى في حرية المـرأة في العالم العربي. فأصبحت المرأة الموريتانية جزءً لا يتجزأ من المنظومة الانتخابية والإدارية للدولة والأمة.

وكان من أبرز من شـاركوني مسـاري الميداني: رأيـاً وعملاً، أخي ورفيـق حـرفي ودربي المفكر والكاتب د. بدي أبنـو، بدّي المرابطي كما يسميه ناشره، الذي ساهم بقوة في توجيهي، ولو أنه حاول قدر الإمكان الابتعاد عن «الواجهة الرسومية» في «خوارزمية» هذا الفعل الحضاري النضالي الحقوقي الفريد الذي يسجل لجيلي بما له وما عليهِ.

كان عقد الثمانيات بمثابَة «الخطّ الزمني الأحمر»، خط العبور بالقضايا الفكرية والنضالية من مستنقع العقول الظلامية وتماسيحها المتربصةِ بسلاح الفتاوي الريفية حيناً، واليدِ واللسان والرصاصِ حيناً آخر.. وبين تلك المستنقعات البرزخيةِ عوالم من المثبطات التي لا يعلم خلفيتها إلا الله.

نجحتْ النساء الموريتانيات في تخليصِ الإسلام العظيم من «منظومة اجتماعية» كادت تطيحُ بالكلِّ خارج الملة، وهن إن شاء الله قيد استبدال الظلام بالنُّور، والجهلَ والتخلفَ بالعلم والثقافةِ، والسباتَ والتغييبَ بالوعي والفكرِ والتفكيرِ.

طيلة العقودِ الماضية كان على شهود المعركة أن ينوبوا عن الأطراف المتحاربةِ. على الأقلّ حينَ نستوحي بعض الصيغ من تراثنا مع السلوكِ المناخيِّ.

وخلال الثلاثة عقود الماضية حاولتُ وعايشْتُ تجارب نسائية فريدة في هذا المجتمع، إنها ملاحم سطرتها نساء كادحات، كان العرَق عطرهنَّ، والطوى خبزهنَّ، وكانت إرادتهنَّ تحني أعتى الظروف فولاذية. لقد جسَّدنَ الأمل والصمود والإصرار الصوفيّ على قهر المستحيل والانتصار على المعوقاتِ والدفع بالمستحيل نحو الإنحناء أمامَ نضالهنَّ.

لقد جسَّدنَ العظمة البشرية في الحلم والتوفقِ بـ»الأنا» على «الأنا» وعلى الآخرِ وعلى «أناه»، جسَّـدنَ أروع الأمثلة في الثباتِ الفخم على قمم التحملِ.

إنَّ القصةَ التي سطرتها أنامل الطالبة الأم (الأستاذة البارزة حالياً) المناضلـة خديجـة بنت سـيدينا من واقع عاشـته وعايشـته ضحية من ضحايـاه، وبطلة مـن أبطالهِ، لهي قصة تنتمي إلى التجارب الإنسـانية السامية، إلى المثل العليا في الكفاح البشري، الذي يصل ذروته مع امرأة تـربي وتتعلم وتخوض صراع بقاء مع اللحظـات الاجتماعية النيرونية الكالحةِ.. واثقة من النصرِ دون أن تفقدَ إيمانها أو ملحفتها.

إنَّ الكلماتِ البسيطة ظاهرياً في هذه القصة الملحمة، كفيلة بأنْ تمنح القراء زوايا متعددة للنظر في عِـبَـرِ هذه التجربة الإنسانية وتقدير خبرها المختوم بالشمع المضيءِ.

إنّ لي الـشرف كأحد العاملين في مشروع «منشـورات خديجة بنت عبـد الحي» بـأنْ أضع بين يـدي الجمهور تجربة هذه المـرأة العصامية، والأم المثالية، والإنسانة الصبورة الكادحة.. إنها تستحق أن نُـبشِّرَ بين الناس بأمثالها.

المختار السالم

إهداء

أهـدي هـذا العمـل إلى كل من سـاعدني من بعيـد أو قريب أيام محنتي، وأشـكرهم جزيل الشـكر، وخاصةً أولئك الذين آزروني في فترة إقامتي بمدينة نيس.

إنّي لأسال الله لهم ثبات الأجر وعلوّ المقامات في الدنيا والآخرة، وأذكـر منهـم صديقتـي الوفيّة الأسـتاذة مارغريـت كامبيـل، التي راسـلتني بعـد رجوعـي إلى نواكشـوط وأخبرتنـي أنّهـا انتقلت إلى موسـكو للتدريس ودراسـة الروسـية. وقد أرسـلتُ لهـا، بدوري، رسـالة ولا أدري هل وصلتها أم لا. فقد انقطع اتّصالي بها منذ ذلك الزمن، وإنّي أرجو من الله ألّا يحرمنا اللّقاء في يومٍ مبارك من أيّام هذه الدنيا القصيرة.

وإنّي أنتهز الفرصة لأترحّم على السـيّد الفاضل محمد فاضل ولد معط الله، سـائلة المـولى عزَّ وجَلَّ أن يُغدق عليه شـآبيب رحمته، وأن يجعل موقفه الشريف معي في ميزان حسناته (هو من رافقته من مطار داكار إلى فندق لاغونـا 2)، وكذلك الأخت الكبرى والوالدة مريم

الملقبة تنني بنت محمد راره تغمدها الله بنعيمه المقيم وأدخلها فسيح جناته، وابنها محمد الأمين (الأمين) ولد الشيخ ولد خطاري، حيث استقبلوني بصدرٍ رحب وبأريحيّة وكرم ضيافة، رحم الله السلف وبارك في الخلف، وأحسنوا وفادتي بعد كثيرٍ من المعاناة التي مرّرت بها، وأشكر أهل المراد، وأسرة أهل كامارا، وأهل أندور، رحمة الله على والد الأسرة أحمد أندور وجعل الله إحسانه في ميزان حسناته، وأهل جد أمُّ وأهل أبياي، رحم الله والدتهم النجاة بنت المحجوب. والأسرتان الأخيرتان، من سكّان باريس،

كما أشكر زميلي وأخي الديش الذي رافقني في رحلتي إلى داكار.

والشكر موصول إلى الأساتذة والدكاترة: الشيخ باي ولد الشيخ عبد الله، ودبَّ سالم ولد النعمان، ومحمد عالي ولد لولي، ومحمد ولد محمد عبد الله، والحضرامي ولد خطري، والحضرامي ولد لمرابط ولد برو، وبنات محمدن ولد إشدو: المحامية جميلة، والأستاذة جهاد.

وكامل الشكر لكلّ من ساهم في تحضيري للنجاح في مسابقة «فاك»، وأولهم الأستاذان محمدن ولد آده والدكتور الشيخ إبراهيم ولد الرباني، وزميلي المهندس محمد الأمين ولد محمد أحمد الذين شكّلا معي المجموعة الصغيرة للمراجعة، وأشكر مدير «ثانوية دار

العلوم» الحاج شبرنو على التأطير الجيد لأول قسم من ثانويته يشارك وامتحان «فاك»، والأستاذ الحارث مدير «مدارس الخيار».

والصديق الحميم لوالد الطفل بجمعة ولد أعيلي رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح الجنان، الذي ما فتئ يذلل الصعاب وآزرني أيما مؤازرة، جعل الله ذلك في ميزان حسناته، وكذلك الوزير السابق محمد ولد المين، ورجل الأعمال الخليل ولد انتهاه، والمهندس الخليل ولد بتاه.

وخالص شكري أيضا إلى الدكتور والباحث الشّاعر بدّي ابنو المرابطي.

وأعتذر من الجميع إن كنت قد نسيت أسماء.

وأخيرا (التاليين غاليين)، أشكر والديَّ اللذيْن ساندني واستمديت قوتي من وقوفهما معي، وأسأل الله أن يجعلهما في أعلى عليين بجوار سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، وينزل عليهما شآبيب رحمته، وإخوتي أطال الله بقاءهم وكذلك أب الطفل الذي ما فتئ يذلل الصعاب ويشد عضدي، فله جزيل الشكر أيضاً.

(1)

كانتْ طالبةً في السنة الخامسة من المستوى الثانوي، حين أُصيب ابنها بكسرٍ وأُجريتْ له عمليّةٌ جراحيّةً غير ناجحةٍ في المستشفى الوطني الموريتاني.

من هنا بدأتْ قصّةُ الأمّ الطالبة التي أخذتْ على نفسها التزاماً ألّا تدخر أيّ جهدٍ في سبيل شفاء ابنها الصغير. قرّرتْ الذهاب به أوّلًا إلى دولة السّنغال المجاورة. حزمتْ أمتعتها وقطعتْ التذاكر وهي التي لم يسبق لها أن سافرتْ وحدها. أجرى الأهلُ بعض الاتصالات بأقارب لهم تجّار في السّنغال لاستقبالها، وزوّدوها برقم هاتف أحدهم.

في مطار نواكشوط الدولي (القديم)، التقتْ مصادفةً زميلَ دراسةٍ كان مُسافرا على متن الرحلة نفسها إلى داكار، حيث سيتوقّف بعض الوقتِ قبل أن يستقلَّ رحلةً أخرى إلى المملكة العربية السّعودية. ساعدها في حمل الطفل، ثم جلسا متجاوريْن في الطائرة. حطّتْ الطائرةُ في مطار «ليوبولد سدار سنغور» القديم، وكانت المفاجأةُ

غياب مستقبليها. انتظرتْ، وطال الانتظارُ. مكثتْ رفقة زميلها الذي لم يحن بعْـدُ موعدُ رحلته. غادر أفرادُ الرحلة القادمة من نواكشـوط قاعة المطار. بحثتْ بعينيْها عن هاتف إذ لم يكن المحمول، آنذاك، قد وُجد. كلّ مـا يوجد هو هاتفٌ ثابت يعمل بقطع النقود. وجدتْ ما كانـت تبحث عنه، ولكنّها لم تكن تَحمل قطعاً نقديّةً من عملة البلد. تدخّل زميلها، وفتّش جيوبه ليجد بعض النقود. أدارتْ الرقم الذي بحوزتهـا، ولكـن لا أحد من الطرف الآخر يـردّ. خلا المطارُ إلا من زمرة لصـوصٍ حاولتْ ابتزازهما تارّةً تتجاذب معهما الأمتعة مدّعيةً أنّها سـتوصلها لسـيارة الأجرة (التاكسي) في الخارج وعندما منعهم الزميل قائلاً لهم: شـكراً لا داعي لذلك، كانوا يردّدون كلماته تهكّماً. اقترح عليها الزميلُ أن يُلغي سفره حتى يوصلها إلى المدينة التي تبعد كيلومترات عدّة من المطار، ولكنّها رفضتْ أن يُلغي سـفره بسـببها. في ذلـك الوقت، لمحتْ شـخصاً عن بعْـدٍ يُغادر القاعـة، تبيّنتْ من ملامحـه أنّه موريتانيٌّ، ويبدو أنّه آخر موريتاني في المطار. تحرّكتْ الأمُّ بسرعـةٍ لتلتحق به عند «التاكسي»، شرحتْ لـه وضعيتها، وبَيّنتْ له أنّ زميلها على جناح سفرٍ، وأنّها تُريد منه أن يُرافقها إلى المكان الذي تحمل عنوانه، فاعتذر بحجّة أنّ الوقت لَيلا، والأرض ليسـت آمنة، وهـو يحمل مبلغـاً مالياً، وقد حَجز مُسـبقاً في فنـدقٍ، ولكنّه عرض عليهـا أن تُرافقـه إلى فُندقه، علَّه يجـد لها هناك غرفـةً تُقيم فيها حتى

الصّبـاح ليوصلهـا إلى العنوان الذي تريد. بقيـتْ الأم لِبرهةٍ مُتردّدةً بـين الذهاب مع غريـبٍ في هذا الوقت المتأخّر، وإمكانيّة تسـبّبها في إلغاء سفر زميلها الطالب، وبين أن تبقى في المطار مع زمرة لصوصٍ لعلّ مُسـتقبليها يأتون بحثاً عنها ولو بعْد حين. حسمتْ قرارها على عجلٍ، وقرّرتْ مرافقة الرجل الغريب عسى أن يجد لها غرفةً من غير حجزٍ، تقديراً منها لأخفّ الأضرار!

(2)

اختارتْ الأمُّ أن تذهب برفقته رغم ما يختلج في ذهنها من هواجس، وهي تُحاول طمأنة نفسها بكونه ابن بلدها، ويؤمل فيه مالا يؤمل في غيره. ودَّعتْ زميلها على أمل اللّقاء به بعْد أن تركتْ له عنوان وجهتها لعلّه يُصادف أحد مسقبليها باحثاً عنها، وانطلقتْ رفقة الرجل.

كانت ليلةً شتويّةً باردةً ظلماء، لا يُرى من خلالها شيء على جنبات الطريق، وكلّما طالت المسافة ازدادتْ توتّراً وانهمكتْ في الدّعاء والتضرع لله سبحانه أن يوجهّها لما هو خير. توقّفتْ السيّارة أخيراً في مكانٍ هادئ على شاطئ المحيط الذي لا صوت فيه يعلو على صوت هدير أمواج البحر، لا بنيان فيه ولا حركة. بدأ الهلعُ يُسيطر على الأمّ، وقالتْ: يا إلهي ماذا يُخبّئ لي القدر؟ خيراً إن شاء الله! نزل الرجلُ وطلب منها أن تتبعه، ساعدها في حمل الأمتعة وحملتْ هي الصبّي، وعادتْ «التاكسي» أدراجها. تبيّن لهم، على بعد خطوات، سُلّم سفليٌّ. نزل مرافقها السّلالم السفليّة وتبعته، فإذا هم بقاعة

فنـدقٍ في طابق سـفلي مليئةٍ بمختلف الجنسـيات الغربيّـة وقليل من السـنغاليّين، ودخان السّـجائر يكاد يحجب الرؤية، والضجيج يعلو الأرجاء. أشـار لها بالجلوس على مقعدٍ قريب من مكتب الاسـتقبال حتـى يُرتّب الأمـور ويعود. علمتْ بعْد ذلك أنّهـا في فندق «لاغونا 2» بداكار. جلستْ الأمُّ، واحتضنتْ ابنها بشدّة، وهي تتضرّع لربّها أن يُفرحها فيما خفيَ. وبعد قرابة أربعين دقيقة، أقبلتْ نحوها عاملة سـنغاليّة، حملـتْ الحقائب وطلبتْ منهـا مرافقتها، ثـمّ نزلتْ بها إلى الطابق السّفلي الثاني، ثم الثالث تحت الأرض، وتوقّفتْ أمام إحدى الغرف وفتحتها، وأشـارتْ إليها بالدخول، وتقدّمتْ نحو السّـتائر وبدأتْ في إزاحتها لتقف أمام أبوابٍ زجاجيّة مُطلّة على شاطئ بحر يبعد عنها أمتار عدّة، تعلوه كراتٌ حُمْرٌ متناثرة يشعُّ منها ضوءٌ خافتٌ يقطع ظلمة الدّجى في منظرٍ مهيبٍ وهدوء عكّر صفوه صوتُ حركة الأمـواج. التفتتْ إلى العاملة مسـتفسرةً، وهي التـي تتكلّم الولوفية بطلاقـة: «هل وجـدَ الموريتانيُّ غرفةً أخـرى؟»، أجابتها: «لا أدري، هذه محجوزة له مُسبقاً!».

(3)

فكّرتْ في أن تُبقي العاملة بجوارها قدر المستطاع حتى يتبادر إلى ذهنها ماذا ستفعل، فطلبتْ منها بالولوفية أن تحمل عنها الطفلَ قليلاً، ثم تجاذبْت معها أطرافَ الحديث، حينها وقع بصرُها على هاتفٍ مُلقى بجانب السّرير، فبادرتْ بالاتّصال بأقاربها التّجار. وقد ردّ عليها هذه المرة أحدهم، وقال: «أين أنتِ؟»، فأجابته: «أنا في فندق «لاغونا 2» الغرفة رقم كذا»، فقال: «لقد جئنا إلى المطار، ووجدنا زميلاً لك أعطانا اسم فندق آخر لم نجدك فيه» (يبدو أنه نسي الاسم)، ثم ختم الاتصال بقوله: «سنكون هناك بعد قليل.»

في تلك اللحظة، دخل الموريتاني صاحبُ الغرفة المحجوزة. وبعد أن اطمأنّتْ الأمُّ على نفسها، أخذتْ الصبيّ من العاملة السنغاليّة التي انصرفتْ بعد ذلك. سألها الموريتانيّ: «هل كنت خائفةً مني؟»، فأجابت مجاملة: «لا أبداً، لماذا قلَت ذلك؟»، فردّ: «إبقاؤك على العاملة معك واتّصالك السّريع قبل مجيئي!»، ثم أردف قائلاً: «والله إن لم أجد لك غرفةً لبتُّ في الشّارع وتركتُ لك غرفتي!

لقـد تأخرّتُ بسـبب إلحاحي عليهم كي أجد لـك غرفةً بأيّ تكلفة، ولكنهم لم يؤكدوا لي حتى السّاعة ذلك». ثم سألها: «من أيّ جهات موريتانيا أنتِ؟»، وعند سماعه إجابتها أدرك بأنّه قريبٌ لها، ولكن لم يسبق لها التعرّف إليه!

وصـل أقاربها لأخذها والطفل، وهناك التقوا الرّجل المرافق لها، ثم شـكروه وودّعـوه، وغادر الجميع إلى محـّل إقامتها الجديد، حيث سبق لهم أن حجزوا لها غرفةً في فندق وسط المدينة. دخلتْ غرفتها، وخلـدتْ إلى النوم بعد ليلة شـاقّة. وفي الصّباح أرسـلوا إليها عاملاً معهم ليرافقها إلى مستشـفى «فان». ولمّـا التقتْ الطبيب المختصّ في جراحـة العظـام orthopédiste، أعطاهـا بعض الآليـات للعلاج، وأمرَهـا بإجراء حصص تدليـكٍ طبّي تقوم بهـا في موريتانيا في أحد المراكـز المختصة في ذلـك، على أن تعود إليه بعد أشـهر ثلاثة. خاب ظنُّ الأم، وقد سبق لها أن قامتْ بالخطوات نفسها في نواكشوط دون جدوى!، ومن طبيعة الإنسـان، أو صاحب الحاجة على الأصحّ، أن يستجيب لما يُنصح به كلّه في سبيل حاجته، حتى إن لم يكن يؤمن به. لمّـا لاحـظ العاملُ عدم ارتياحهـا للعلاج المقترح من لـُدن الطبيب، حدّثها عن حكيمةٍ تقليدية، وعرض عليها مرافقتها لزيارتها في اليوم التـالي. عادتْ إلى الفندق، وانصرف العامل لشـأنه. وبعد اسـتراحةٍ قصيرة تناهى إلى مسـامعها طقطقة كؤوسٍ على مائدة شايٍ موريتانيّ

في الغرفة المقابلة، وهي التي لم تذُق طعمه منذ أربع وعشرين ساعةً. قرّرتْ زيارة جيرانها علّها تجد لديهم كأس شاي يُخفّف عنها الصّداع (وهـو مـا يُعرف محلياً بـآدواخ) فإذا بسـيّدة موريتانيّـة تنزل في تلك الغرفـة رفقة صديقةٍ لها عراقية قاطنة في داكار كانت قد تزوّجتْ من طالبٍ سنغاليّ في العراق، وأنجبتْ منه أطفالاً، لكنّه، وبحكم طبيعة اختـلاف الثقافات، تزوّج عليها، فلم تقبـل بذلك الأمر. واندلعتْ مشـاكل عائليّة عدّة بينهما قادتهما للقضاء الـذي حكم للرجل بتربية أبنائـه، وبقيـتْ المـرأة متـشّردةً مكافحـة من أجـل اسـتعادة فلذات كبدهـا، تدعمها في ذلك صديقتها الموريتانية التي تعرّفتْ عليها منذ سـنوات عدّة، حيـث كانت تمتهن التجـارة بين نواكشـوط وداكار، وصارتْ سنداً لها في متابعة ملفّها بعد أن أَعرض بعض أفراد الجالية العراقيـة هنـاك عـن قضيّتها عقاباً لهـا، على حدّ قولها، عـلى زواجها مـن الأجنبي. تعاطفـتْ الطالبةُ الأمّ مع السّـيدة العراقيـة، وتأثّرتْ بقصّتها، وأصبحـتْ مهتمّةً بالاطلاع على مسـتجدّات القضية ومدّ يد العون لها ما أمكن.

في اليـوم التالي، وصـل العاملُ لمرافقـة الأم إلى الحكيمة التقليدية في حـي «كيـدواي» بداكار. اسـتقبلتْهما سـيدة مسـنّة، قمحيّة اللون خرجتْ لتوّها من الاسـتحمام، تلبس قطعة قماشٍ تلفّ بها جسدها، وتغطّيها من ثدييْها إلى سـاقيْها. بعد التحيّة والسّلام، أخبرتْها بسبب

قدومها. استمعتْ السيّدة للأم، وطلبتْ منها الانتظار حتى تُصلّي الجمعة في المسجد القريب. ولمّا رجعتْ، سألتْ عن اسم الطفل واسم أمّه، أخذتْ قدحاً كبيراً من خشب (لقشاش)، صبّتْ فيه الماء، ثم أخذتْ مطرقة ومبرداً وأشياء من ذلك القبيل ووضعتها فيه، ثم أشعلتْ سبعة عيدانٍ من أعواد الثّقاب، وأطفأتْها بداخله، وقامتْ بتحريك الأدوات داخل الإناء متمتمةً بكلمات لم تستطع الأمُّ فهمها، إلى أن أصبح لون الماء في الإناء يميل إلى لون الصّدأ. سألتْ الحكيمةُ الأمَّ: «من هو محمد عبد الله؟» فقالتْ لها: «ذاك أبي». فأردفت: « لم يكن معكم في مدينةٍ واحدة؟ فأجابت الأمُّ: «صحيح، كان في مدينة أخرى». فقالتْ: «هو الآن في منزلكم بمدينتكم»، ثم سألتْ: «من هي فاطمة؟» فقالتْ: «هي أختي؟» «وهل عندك صديقة اسمها عيشة؟ «فقالت» نعم». قالت الحكيمة: «هم الآن معاً في منزلكم في نواكشوط». قرّرتْ الأم أن تتّصل بعد خروجها من عند الحكيمة للتأكّد من صحّة كلامها، فإذا به كالنّقش في الحجر، وإذا بالوالد قد قَدم إلى نواكشوط في الوقت نفسه الذي قالت فيه الحكيمة كلامها. وكانتْ صديقتها عائشة في زيارة لهم!

(4)

أعطتْ الحكيمةُ للأم زجاجةً مملوءةً بذلك الماء الذي يحمل لون الصّدأ، والذي كانتْ تحرّك فيه الأدوات الحديدية، وطلبتْ منها أن تُسقيه، كلّ يوم، جرعةً منه، وأن يستحمّ ببعضه بعد خلطه بالماء. ولكنّ الأمّ، التي لم تكن تؤمن أصلاً بهذه الأمور، لم تفعل ذلك، بل إنّها، وبمجرّد خروجها من هناك، رمتْ القنينة في أقرب مكبٍّ للنفايات. فهي لا تستطيع أن تسقي صبيّاً ماءً صدئاً، ثمّ عادتْ إلى «اكران داكار» حيث يوجد الفندق، وذهب الدليلُ.

في الصّباح، استيقظتْ على صوت حديثٍ في الغرفة المجاورة وعلى قرع كؤوس الشّاي ورائحة النعناع الزكي. وبعد أن قامتْ بترتيب غرفتها، ذهبتْ لزيارة الجارة في الغرفة المجاورة، فإذا بالموريتانيّة مع موريتانيٍ آخر يؤازران العراقيّة التي حُكم عليها بأخذ أولادها منها وطردها من المنزل. وعدتْها صديقتها الموريتانيّة بتعيين محام ليهتم بهذه القضيّة، وبتحمّل نفقاته كاملة. وفي سياق الحديث، سأَل الموريتانيُّ الأمّ عن السبب الذي أتى بها إلى داكار، هل

هـو أمر خير؟، فقصّتْ عليه قصّة مـرض الولد لعلّه يُعينها بنصيحةٍ تفيـد في علاجـه، فقال لهـا: «الكسـور لا تعالج هنا في المستشـفيات بل عند الرّقاة، ومن جلسـةٍ واحدة يتم الشـفاء بإذن الله»، ثم أشـار عليها بِـراقٍ معروف. بدأتْ الأمُّ المسـكينة تتهيأ للذهاب إلى الراقي المذكـور. في ذلك الوقت وصـل الدليل. أخذتْ العنـوان الذي هو قرب شـارع «لنـاري آتالي»، وانطلقوا إلى الشـيخ الراقـي لتشرح له مرض الولد. طمأنها ببسـاطته، ووعدها بأنّه سيُشـفى في الحال بإذن الله، ثم أخذ عوداً متوسطَ الطول والسُّمك وكسره فوق قدم الطفل، ثم بدأ يتلو كلماتٍ، فيرجع العود شـيئاً فشـيئاً إلى سـابق عهده! فعلاً إنّها معجـزة بصريّة، ولكن لا انعكاس لها على قدم الطفل كما وعدنا الراقي. سألها بعد ذلك إن كان كسره حديثاً، فأجابت بأنّ ذلك كان منذ فترة، حينها تأوّه وقال: لذلك لم يسـتجب بسرعة للرقيَة، ولكن ستعطي مفعولها بعْد أيام.

في تلـك الأيام كانت السّـنغال تشـهد مظاهراتٍ وتوتّراً شـديداً عـلى الصعيديْـن الداخلي بين المعارضة السـنغالية بقيادة عبد الله واد والرئيس السـنغالي عبدو ضيوف، والخارجي حيث تشـهد السـاحة توتّراً آخر بين الجارتيْن موريتانيا والسنغال. وكانت هناك بوادر أزمةٍ تلوح في الأفق، والشـارع مشحون بسـبب أزمة الأحواض الناضبة التي تبنّتها السّنغال وعارضها الجانب الموريتاني لإضرارها بمصالحه

ونقص حصّته من نهر السنغال المشترك بين الدولْتين. وهي أزمة ستؤدّي إلى تدفّقٍ كبيرٍ للمياه في الأحواض النابضة في اتّجاه السنغال على حساب حصّة موريتانيا من مياه النهر. ونظراً لتداخل النسيج الاجتماعي بين الدولْتين، دخلْت على الخط الحركة الانفصالية المُسّماة «قوّات تحرير الأفارقة في موريتانيا» المعروفة اختصاراً بـ «أفلام»، وعمدتْ إلى تأليب النظام والرأي العام السنغالي على الدولة والشعب الموريتاني [راجع مذكّرات الرئيس السنغالي عبدو ضيوف] وشاركتها في ذلك بعض الصّحف السنغالية فيما بعد حيث انعكس ذلك على المعاملات غير الوديّة تجاه الموريتانيين المقيمين في السنغال.

وفي هذه الظروف، حزمتْ الأمُّ أمتعتها تحضيراً للعودة إلى أرض الوطن بتلك الأدوات الطبية، والتوصية الوحيدة التي مدّها بها الطبيب هي متابعة التدليك في المركز الطبي في نواكشوط!

حجزتْ الأم تذكرتها متجّهةً إلى نواكشوط السّابعة مساء على الخطوط الجوّية الموريتانية. ولم يمض على الإقلاع وقتٌ وجيزٌ حتى غطّتْ السّماء سحبٌ ورعود، وأصبحتْ الطائرة كجسمٍ ورقيٍّ في الهواء، تتلقّفها أمواج الرياح، تنطفئ أنوارها تارةً ويسودها الظلام، وتارةً أخرى يُضاء جانب منها. ومن حينٍ إلى آخر كانت تسمع فرقعاتٍ صوتية مفزعة وتشعر بهزّات تُلقي بكلّ راكبٍ تجاه

جاره رغـم ربطهم لأحزمة الأمـان، مُحْدثةً هرجاً ومرجـاً، وتعالتْ الأصوات بالأذان والتكبير والصّراخ، بينما كان البعض الآخر يُكرّر أدعية حسن الخاتمة!

(5)

حوّمتْ الطائرة محاولةً النزول في هذه الظروف الجويّة السّيئة، وأصوات الابتهالات والدعاء تملأ المكان، وفجأة هبطتْ على أرض مطار نُواكشوط الدولي (القديم)، بفضل مهارة الطيّار الموريتاني «الحاج»، الذي خرج يُداعب الركّاب الذين انقسموا إلى من هو شاخص إلى السّماء مادّاً يديه يحمد الله ويشكره، وبين آخر خرَّ ساجداً حامداً لله ربّ العالمين. وحين مرَّ من أمام الأمّ بعد خروجها من الطائرة ألقى عليها التحيّة، وداعبها قائلاً: «مَذلّك»، فأجابته «لم قلتها؟»، قال «أنا بإمكاني تمييز صوت كلّ راكبٍ حين يتكلّم بجانبي!»

رجعتْ الأمُّ لمعالجة الطفل عند مركز التدليك، ولكن «العافية بطيئة». اتّصلتْ بطبيب عظام اسمه لاروك، وهو عقيدٌ عسكريٌّ فرنسيٌّ كان بالمستشفى الوطَني، فاقترح عليها إجراء عمليّةٍ للولد اشترط فيها إحضار نوعٍ من الجبيرة خفيف الوزن يُسمّى «إلاستوبلاست»، استقدمتْه الأمُّ من الخارج قبل العملية. أجرتْ

الفحوص اللازمة، وقابلتْ المخدّر، وتم حجز صغيرها قبل العملية بيـوم في بيتٍ فردي. وفي الصباح، قدِمتْ الأمُّ وطفلها ليجلسـا أمام غرفـةً العمليات تحضيراً لإجـراء العمليّة. جاء المخـدِّر وأخبرها أنَّ الولـد يُعاني من التهاب بسـيط في الرئة، فعلاً الولـد مُصاب بكحّة. أرادتْ أن تعرف إن كان ذلك سـيؤثِّر عليـه في العمليّة، فأجابها بأنّه سـيتولّى الأمر وسيكون خيراً إن شاء الله، ثم طَلب منها نزع ملابس الطفل وتسـليمه له، ففعلـتْ، وبقيتْ بعض الوقـت في ذلك المكان الصّامـت جاثمـةً متمسّـكةً باللّباس، تـذرفُ دموعـاً وتدعو الله أن يشـفي صغيرهـا ويحفظه. ثمّ طَلـب منها عاملٌ أن تخـرج من هناك، فتماسـكتْ وكتمتْ مشـاعرها عـن أهلها، وخرجـتْ إليهم وهم في غرفةٍ غير بعيدةٍ عن مكان العمليّة، وأخذتْ تَتنقّل ذهاباً وإياباً باتّجاه غرفـة العمليات. وبعد وقتٍ طويل لم تكن تُقّدره، إذا بحركةٍ مريبة؛ عمّالٌ يخرجون مسرعين من غرفة العمليات ويحملون أدوات وأدوية، وبعدهـا خـرج ممرّضون يدفعـون بسريرٍ مسرعين لغرفـة الإنعاش. لحقْـت بهـم عند باب الغرفة، فـإذا بالذي على السّريـر ولدها. أُغلق بـاب الغرفـة في وجهها. وبعد برهة، شـاهدتْ البروفيسـور لاروك ذاهبـاً في اتجـاه الإنعاش، سـألته منكسرةً: «ماذا جـرى لولدي حتى يدخـل الإنعاش؟» فأجـاب: «بعـض التعقيدات بسـبب الالتهاب الرئوي!»

(٥)

طلبتْ الأمُّ من البروفيسور لاروك رؤيةَ الولد، فردّ بأدبٍ مُطالباً إيّاهـا بالانتظار قليلاً، فوقت الزيارة المسـموح به ليس ببعيدٍ. ولكنّه اقـترح عليهـا رؤيته من جانبٍ، أشـار عليهـا به، يعزلـه عنها حائطٌ زجاجـيّ لم تنتبه لـه قبل ذلك. ألقتْ عليه نظرةً، فـإذا به يغطّ في نومٍ عميقٍ يتخلّل جسـمه بعـض الأجهزة، وفوقه مصبـاح ذو لونٍ أحمرٍ قاتـم. بعدهـا بقليل خرج الطبيـب من غرفة الإنعـاش، وطلب من الأمّ مرافقتَـه إلى مكتبـه، هنالـك شرح لها صورَ الأشـعّة المُعلّقة على لوحةٍ مضيئة على الحائط والوضعَ قبل العملية وبعدها، وطمأنَها على صحّة الولد، وأنه سيخرج بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من الإنعاش، فلا داعي للقلق. بعد أربع وعشرين سـاعةً، غادر الطفلُ غرفة الإنعاش إلى غرفة أخرى، وبدأتْ حالته الصحيّة تتحسّـن شـيئاً فشيئاً، إلى أن غادر المستشـفى بعد أسبوعٍ، وعلى قدمه وساقه جبيرة خفيفة ستظلّ لمدة ثلاثة أشهر.

كانـتْ الأم مسـتعجلةً لانتهاء الأشـهر الثلاثة لـترى إلى أيّ حدٍّ نجحـتْ العملية الجراحية. لكن بعد انقضـاء المدّة، وبعد أن تمّ فكّ الجبيرة، لاحظتْ الأمُّ أنّ النتائج لم تكن مُرضية، فطلبَ منها الطبيبُ الرجوع لمركز التدليك العلاجي لإكمال العلاج، ريثما يرى إن كانتْ هنـاك ضرورةٌ للقيـام بعملية أخـرى. في الفترة التي تلـتْ العملية، كانتْ تنتابُ الطفلَ نوباتُ ضيقٍ حادّة في التنفس، ما يشبه الربو، ربما كان ذلـك من آثار الالتهاب الذي أُصيب به في أثناء العملية. قرّرتْ الأمُّ التوقّف عن الدراسة لفترة والبحث عن عمل لعلّها تدخّر مالاً لعلاجه خارج الوطن، وكان والد الطفل آنذاك يقوم بإجراء تربّصٍ تكوينـي في الخـارج لمدّة سـنة ونيِّف. بعد مدّةٍ مـن البحث، وجدتْ عمـلاً في أوّل مصحةٍ خصوصية فتحتْ في موريتانيا، وقد أسـعفتْها في ذلك شهادة المحاسبة التي كانتْ قد حصلتْ عليها.

أصبحتْ الأمُّ محاسـبةً في ذلك المستشفى الخصوصي، تعمل بجدٍ ومثابـرة، دون أن تهتـمَّ أحياناً بأوقات انتهاء العمل، لاسـيما إذا كان هنـاك عمل ما يسـتدعي بقاءها. وبعـد مرور سـنة، أصبحتْ هناك منافسـة في مجال الطبّ الخصوصي، خاصّـةً بعد فتح عياداتٍ أخرى عديـدة. تراجعـتْ مردوديّـةُ المصحـة، وأُجريـتْ بعـض التغيرات الإداريّة فيها، وعُيِّن مديرٌ جديد له طريقته الخاصة في تسـيير شـؤون المصحـة، حيث قام بإنهاء مهمّةِ بعض الموظّفين القدماء، ومن بينهم

أمّ الطفل واستقدم آخرين مكانهم، وتلك عادة منتشرة في موريتانيا، كلُّ مديرٍ يعتقد أنّ الإدارة تُخوّله ملكيّة المؤسّسة وجلب من أراد، وبقيتْ الأمُّ تُطالب بمستحقّاتِ ثمانية أشهر عملٍ لم تُدفع لها بحجّة إفلاس المصحّة.

وبما أنّها انقطعتْ عن العمل، فكرّتْ الأمُّ في سبيلٍ آخر يُمكّنها من مواصلة علاج ابنها خارج الوطن، فحسمتْ أمرها بالرجوع لمقاعد الدراسة، لَعلّها، باجتهادها، تجد منحةً للخارج تمكنها من علاجه وخاصة «الفاك» الفرنسية.

كانتْ السفارة الفرنسية تسمح للمتفوّقين من طلبة الثانوية العامة (البكالوريا) في امتحان نصف السنة بالمشاركة في مسابقة «الفاك» التي تُجرى داخل مباني السفارة، والتي بموجبها يتمُّ تقديم منحة من الدولة الفرنسية للمتفوّقين.

كبر الولد قليلاً وأصبح يحاول الكلام.

انهمكْت الأمُّ في الدراسة والتحضير للبكالوريا، وواظبْت على أخذ الدروس الخصوصية بعد التسجيل في ثاني مدرسةٍ حرّة من حيث الأقدميّة في نواكشوط؛ دار العلوم. وكان لِمدير المدرسة الحاج شبرنو دورٌ بارزٌ في تحفيزهم كأوّل قسمٍ للبكالوريا في ثانويّته ودعمهم بحصصٍ إضافيّة، كما كان لِمدرسة أمل الخصوصيّة، التي تُقدّم لها الحصص المسائية، دورٌ في تحضيرها لمسابقة «الفاك». وقد

كلّفها ذلك كلّ ما ادّخرته من مال، كما أنّها قد باعتْ ذهبها كلّه بالوزن، أي دون ثمن الشّراء. وقد تمكّنتْ من التفوّق في امتحان نصف السنة على قسمها في مدرسة دار العلوم، وشاركتْ في مسابقة «الفاك» التي لم تكن بالأمر السهل!

(7)

نجحتْ الأمُّ في مسابقة منح صندوق العون والتعاون «فاكFAC » بالسفارة الفرنسية، ولكنّ الحصول على المنحة مربوطٌ بِنجاحها في امتحان البكالوريا. لم تَعد الأم ترغب في إضاعة أيّ وقتٍ، ولم تكن تنام إلا في السّاعات الأخيرة من الليل. لم تزُر صديقةً في تلك السنة، ولم تتسوّق قط، كلّ ما كان يهمّها هو الدراسة، وسلاسل التمارين والمجموعة الضيقة التي تَدرس معها والتي تتكوّن أساساً من شخصيْن صديقين أحدهما يُحضِّر معها البكلوريا والآخر في سنته الأخيرة من جامعة نواكشوط يُدرِّسهما المواد العلمية؛ وكانتْ عندما تَهمّ بأخذ قسطٍ من الراحة تتذكَّر مسابقة البكالوريا فتعود إلى مباشرة الدروس أحياناً أو تَنزوي تُناجي ربَّها بطلعة عبد الله السالم ولد المعلا أحياناً أخرى:

يَالله ابنبيك البشير ❋ النّذير اطْلبتك تَيْسير
العَسيرْ احسن لي تَدبيرْ ❋ النّجاحْ آن بالتّصراحْ
ماطالعت اكتوب التفسير ❋ ولا راجعت اكلام الشّراحْ

وابْـــلا وسـاطَه ف المديـر * والمسـؤول الِّ نعـرف طـاحْ
ولا ف امتحـاني تأخـــيرْ * يَـــالله القَـــديـر الْـــفتاح
النَّـــجاح الَّل يـــالْقـدير * اصَّ يَـــــالفتَّاح النّـــجاحْ
طيـنـي فتـح إجينـي يرگـع * فَـصْـلي وإجينـي بـالتزداحْ
إلَـــين انگـول آح ونـنـگـعْ * ف النَّـــجاح إلين انگول آحْ

وتمت المشاركة في البكالوريا.

إلى أن جاء اليوم الموعود، ففي تمام الساعة السادسة مساءً أُبلغتْ الأمّ بأنّ النتائج ستُنشر لتوِّها في ثانوية البنات، انطلقتْ مسرعةً دون أن تنتظـر من يرافقها من أفراد الأسرة، واسـتقلّتْ الحافلة (الباص) ثـم نزلتْ قرب سـوق العاصمة الكبير، وهرولـتْ إلى الثانوية. وإذا بحشـود التلاميذ، والقلوب قد بلغت الحناجر. رفعتْ الأمُّ رأسـها، فـإذا بزميـلٍ لها في مجموعتهـا الضيقة يصعد الحائـط، والجميع ينتظر على أحرٍّ من الجمر. بدأ الليلُ يسـدل سـتائره خـارج المبنى، وكانت الإضاءة في ذلك المكان منعدمةً، بينما كانت عينا الأم على باب المبنى. وفجأةً خرج أستاذها المفضّل للعلوم والمميز «النم»، بادرتْه في الظلام بالسؤال: «أسـتاذي، هل نجحتُ؟»، فأجابها: «ذيك منه؟»، أجابتْه «فلانـة»، فـردَّ «نجاحك لا يُسـاوم عليه «نجاحك «ابـلا اجميل»، لم أطّلع على النتائج بعد، ولكنّها ستنشرُ بعد قليل!»

بعدهـا تسـابق الجميع إلى حائط المبنى، وإذا بِأسـتاذٍ يُطلُّ برأسـه من وراء الحائط وبِيده دفتر النتائج. وعندما بدأ بالنداء، حبس الكلّ أنفاسـهم كـي لا يُشوِّشـوا على سـمع الآخريـن. وعند نطقه بِاسـم زميلها سـقط من فـوق الحائط تحت أقدامها. لم يكن الوقت مناسـباً للضحـك، ثـم نودي بِاسـمها واسـم زميلـةٍ لها أخـرى كانتْ تقف بجوارها، تعانقتا، ولم تشعرا بوضعهما إلا بعد أمتارٍ من التدحرج!

(8)

نجحتْ الأمُّ في اجتياز اختبار البكلوريا، وبدأتْ في الاستعداد للذهاب، قبل افتتاح السنة الدراسية بالنسبة للجامعات الفرنسية، في سبتمبر، وتمّ توجيهها لكليّة العلوم التقنية في مدينة «نيس Nice» الفرنسية. ولم تتّضح لها الصورة بعْد، أي كيف سيستفيد الولد من بطاقة تأمينها الصحّي؟ وهل يلزم حضوره أم لا بعد انتهاء جميع الترتيبات المُتعلّقة بالمنحة والسفر، وفي انتظار أن تَتبيّن لها طريقة لعلاج طفلها.؟

سافرتْ الأمُّ وحيدةً عبر الخطوط الفرنسية ليلاً. ومع ساعات الصباح الأولى حطّتْ الطائرة في مطار «شارل دوغول» الدولي، هنالك حيث التقتْ الطلاب المُتمتّعين مثلها بمنحة «الفاك» من موريتانيا، وإذا بمستقبلتهم تحمل لافتةً كُتب عليها: «الطلاب الموريتانيون الممنوحون من طرف « المركز الدولي للطلاب والمتدربين CIES». أعطوهم تذاكر لِمدينة نيس، ورتَّبوا لهم أمور السفر إليها. وصلوا في المساء مُنهكين، وتمَّ توزيعهم على أمكنة الضيافة. نزلتْ

الأمّ في سكنٍ طلابي قرب كليّة العلوم الإنسانية، بالقرب من مسكن الرئيس السابق أبي الأمة المختار ولد داداه. فرحتْ كثيراً بهذه الجيرة لعلّها تلقاه. وكانتْ كلّما مرّتْ من أمام العمارة التي يسكن فيها وقفت هنيهةً على أمل أن تجد إليه طريقاً، ولكن ذلك لم يتيسّر لها. سألتْ بعض الطلاّب، فأخبروها أنّه لا يمكنها زيارته قبل ترتيب موعد معه. وكيف يُمكنها أن تظفر بموعدٍ مع من لا يعرفها وهي التي ترعرعتْ ودرستْ في فترة حكمه وعدتْه قدوةً في الأخلاق والخصال الحميدة، ورأتْ فيه القائد الوطني النزيه. بحثتْ في دليل الهاتف، فإذا به في اللائحة الحمراء التي لا تظهر في الدليل. جلسْت ذات مساءٍ لِمدة ربع ساعةٍ أمام منزله وعادتْ بها الذكريات بعيداً إلى مرحلة الطفولة والمدرسة الابتدائية وكيف كانتْ تشارك في عيد الاستقلال مزهوّةً إلى أن تصل إلى المنصة الرسمية لِيلوّح لهم أبو الأمّة ومؤسّسها المختار ولد داداه بيده لِينتهي التعب عندها. تذكّرتْ حلقةً من روضة الأطفال كانت ضيفتها من مدرسة العدل، وفي ركن التعارف سألها الصحفيُّ المختار لسان الدين قائلاً: «من هو بطلك المفضل؟» فأجابته: «الرئيس المختار ولد داداه». غادرتْ بعد أيام ذلك السكن، الذي يجاور منزل «أبي الأمة» دون أن تلتقيه، إلى سكنٍ آخر في كليّة العلوم والتقنيات التي ستدرس فيها. ولمّا رأى مدير السكن الجامعي أنّها ترتدي الملحفة طلب منها ضرورة

خلعهـا، وارتداء لِبـاسٍ لا يُميّزها عن الطلاب هناك وإلا سـيُضطَرُّ لإجبارهـا على مغادرة ذلك السـكن الجامعي «سـيتيه مونت بللو». دخلتْ في نقاشٍ مطوّلٍ معه، بحجّة أنّها حرّة في اختيار ملابسها مثلما هـو حرّ، وأنّها جاءتْ في إطار التعـاون بين البلدين، وأن لا دخل له في ملابسـها، لأنّ ذلك يدخل في باب الحرية الشـخصيّة ولكن دون جدوى، فالمدير مصرٌّ على التمسك بموقفه. اضطرتْ لتقديم شكايةٍ لـدى CIES، الهيئـة المانحة التي كانـت تُديرها عجوزٌ تسـمى مَدام بوكيون. سردتْ لِلمديرة ما جرى، فسألتها هذه الأخيرة: «ألا تحبّين أن تندمجـي في المجتمـع وألا تكوني مختلفة، ذلـك في صالحك أكثر»، فأجابـتْ: «نحن الموريتانيـين نعيش في دولةٍ مسـلمة بالكامل، ومع ذلـك نرى الغربّيين يسرحـون ويمرحون بِلباسـهم القصير وأحيانا بِسـفور عـلى شـاطئ البحـر ولا أحـد كان يتدخّل في ذلـك، فكيف لِبلد يدّعي الحرية والديمقراطية، وكل ما نسـمع عن قيم الجمهورية الفرنسية، أن يرفض قبول الآخر؟»، وكانت العجوز حاذقةً، وتفهم أبعد ممّا تسـمع، فقالت: «صدقت، اذهبي سـأتولّى الأمر والبسي كما شـئت! لن يتدخّل بعد اليوم أحد في حريتّك الشـخصية!»، وهو ما تم فعلاً.

ورغـم أنّ منحتهـا كانت أولاً في الطبِّ، إلا أنّهـا ابتُعثتْ إلى كلية العلوم والتقنيات في سنةٍ تحضيرية للطلاب الذين أخذوا البكالوريا

بغير اللغة الفرنسية، وكان من بينهم كلّ من منح من الموريتانيين في تلك السنة.

بعد أشهرٍ ثلاثة، أتمّتْ الإجراءات والترتيبات جميعها المتعلّقة بالأوراق، وتحصّلتْ على الإقامة المؤقتة. وعندما أرادتْ الحصول على بطاقة الضمان الاجتماعي، أخبرتْ المسؤولين في هذا الشأن أنّ بصحبتها ولدًا في سنته الخامسة، فأدرجوا اسمه معها في البطاقة. بدأتْ الأمُّ تفكر في كيفيّة قدوم الولد، ولكن إدارة السكن الجامعي في «سيتيه مونتِ بِلّلو»Cité Montebello طلبتْ منها ألا تقبل أيّ ضيفٍ في الغرفة، فالأُسَر لهم إجراءات سكنيّة خاصة بهم. اضطُرّتْ الأم لإيجار منزلٍ بضعف المبلغ الذي كانت تدفعه لسكنها ب»سيتيه مونتِ بِلّو»، في وسط المدينة، في إقامة « ريزيدانس دو فرانس Résidence de France»، ولكنّ المشكلة المطروحة أمام الأمّ الطالبة الآن هي كيف ستجمع بين المواظبة على الدراسة ورعاية الطفل وعلاجه؟

(٩)

كانـت الأمُّ قـد نسـجتْ علاقاتٍ مـع جيرانها في سـكن «مونتِ بِلّلو»Montebello الجامعي، وصديقتها «آن لور Anne-Laure»، لم تكـن تمـرّ من أمـام غرفتهـا دون أن تُلقي عليها التحيّـة وتحكي لها مآسـيها. وقـد مكّنتْ التجربة التـي كانت لـدى الأم الطالبة من أن تُسـدي لهـا النصـح دوماً مـع اختلافهـما في طريقة التفكـير والثقافة والديـن، ومُحاولـة إقناعها بالمنطق. كانتْ «آن لـور» تتحدّثُ لها عن «الثالـوث المقـدّس la Trinité»: الأب والابـن والـروح القـدس، وعـن كيفيّة تأدية صلاتها بيدها. وكانتْ الأمّ تحـاول، بطريقةٍ ذكية، أن تحدّثهـا عـن الله جلّ جلالـه، لتُصحّح لها بعـض المفاهيم، ولكن دون جـدوى. لقد جاءتْهـا ذات يوم تبكي قائلـةً: «إنّ جدّها يُحتضَر ويَصرخ باكياً بأنّه حتماً سـيدخل النار، لأنه ليس على شيءٍ»، فإذا بها تؤمن بالجنة والنار والإله ولكن بطريقة مشوّشة.

كانتْ هناك صديقة أخرى تسكن بجانب غرفتها، تُسمّى «آنّابيل Annabelle»، تدرس في ليسانس رياضيات، وكانت تمرُّ بها لمرافقتها

إلى المطعم الجامعي. كانت «آنّابيل» تسبقها في المشي، نظراً إلى سرعة خطاها، ثمّ تُضطَرُّ لانتظارها حتى تلحق بها في كلّ مرة. كانت ذكيةً فعلاً، وهادئة. طَرقْت، ذات يوم، الأمُّ الطالبة باب غرفتها ففتحتْ الباب بنصف فتحة، وطلبتْ منها الانتظار قليلاً، ثم عادتْ وفتحتْ لها الباب، وأجلستْها بجانبها، واعتذرتْ لها، لأنّها كانت تستحمّ، ثم أضافتْ قائلةً: «بما أنكِ أتيتِ في هذا الوقت، فإنّه يتوجّب عليَّ إطلاعك على أمرٍ ما؛ إني أحمل إعاقة، فأنا بساق طبيعيّة واحدة، أمّا الأخرى فاصطناعيّة، وها هي أمامك». كان وقع هذه الكلمات على الأم أشدّ من وقع السيوف المهندة لِشدّة المفاجأة، ولكنّها تماسكتْ نفسها كأنّها لم تسمع شيئاً جديداً. ما أصعبه من موقف! شخصٌ يكاد ينهار من هول المفاجأة ولا يحرّك شعرة منه! يتظاهر أنّ الأمر طبيعيٌّ جداً، حتى إنّها تجنّبتْ النّظر إلى السّاق الاصطناعية، وكانت إجابتها بأنّ ذلك أمرٌ طبيعي وواردٍ حدوثه دائماً، وبأنّها رائعة هكذا. أخذتْ «آنّابيل» تسرد قصتها وتلبس في الوقت نفسه ساقها الاصطناعيّة. قالتْ إنّها لمّا كانتْ في عمر السبع سنوات، وبينما هي تمارس هوايتها في ركوب الدرّاجة في جبالٍ بضواحي مدينة مرسيليا، سقطتْ في حفرةٍ بين الجبال، وجاءتْ طائرة طبيّة خاصّة لنقلها إلى المستشفى في مرسيليا. وبسبب ذلك بُترتْ ساقها، كما خرجتْ عيناها عن مكانهما، وبعد سنواتٍ من الحجز الطبّي شُفيتْ، وتمّ إرجاع العينيْن لمكانهما

الطبيعي عبر عمليات جراحيّة للعينين، وأصبحتْ بساقٍ اصطناعيّة تدربـتْ عـلى المشي بها حتى أصبـح من الصعب التمييز بين مشـيتها ومشية أي شخصٍ عادي!

(10)

نجحتْ الأمُّ الطالبة في تكوين صداقاتٍ مع طالباتٍ أخريات من دولٍ عربيـة مختلفة؛ الجزائـر، تونس، المغرب، ولبنان. من بينهم مثلاً الطالبـة اللبنانية «سَـنية» المتحجّبة، التي كانت كثـيراً ما تَدخل معها في نقاشـاتٍ حـول مواضيع عدّة، كاللحم الحـلال الذي يقدّمونه في المطعـم الجامعي، الذي تعُدُّه هي حراماً. أمّا الأم فتراه عكس ذلك، مسـتدلةً بقوله تعالى في الآية الكريمة: (وَطَعَـامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكَمْ) -صدق الله العظيم- ومُبيّنة لها أنّها طالبةً في غرفة صغيرة ليس لديها مطبخ ولا وقت كافٍ للطبخ، كما لا يوجد سوق بجانبها، وذلـك كلّه يُبيح لهـا أكل طعام المطعم الجامعـي، مع أنّ الضرورات تبيـح أحيانـاً المحظـورات. وكانتْ كلّـما زارتْها أو التقتْهـا في المطعم عـادتْ لتحدّثهـا عن الموضوع نفسـه، يبـدو أنّ العـرب اتفقوا على أن لا يتّفقوا، ودأبوا على الانشـغال في الخلافـات دوماً!، أمّا الطالبة الجزائرية بلحاج، فكانتْ فَطنةً ذكيّة، تحضِّر الدكتوراه في الرياضيات، ترتدي جلباباً أسودَ ومتحجبّة، ولبقة. أمّا التونسية سوسن، فهي في

سـنتها الرابعة في اختصاص الطبّ، وكانت منشغلةً دوماً بدراستها، وتطمح للتخرّج لتصبح طبيبةً في تونس.

تحوّلْـت الأمُّ الطالبـة إلى سـكنها الجديـد في وسـط مدينـة نيـس السـاحليّة. وجـاء الولـدُ عـلى متـن الخطـوط الجويـة الفرنسـية مع والـده الذي أوصله إلى مدينة نيس، قبـل أن يعود إلى أرض الوطن. ذهبـتْ به إلى مؤسّسـة «لانفـال» Fondation Lenval – Hôpital pour enfants وهـي عبـارة عن مستشـفى كبير للأطفـال. وهناك تـمّ توجيهها إلى أسـتاذٍ في طـبِّ العظام اسـمه داوود عبد الحميد. لم يكـن الدكتور داوود يتحدّث العربية مع أنّه يحمل اسـماً عربياً، فهي لم تسـمعه يتحـدّث بهـا إطلاقـاً، حتـى في أثنـاء تواصله مـع الطفل الـذي مـا زال لا يعرف الفرنسـية. كان يطلب من أمّه أن تسـأله إذا أرادَ معرفـة أمـرٍ ما أو تشرح له كذا. كان خمسـينيّاً محترماً هادئاً، غاية في الأدب والأخـلاق. وقد اقترحَ إجراء تدخّـلٍ جراحي على ابنها، فقبلـتْ الأمُّ الطالبـة، وبدأتْ في إجراءات العمليـة. طلبوا منها بعد ذلك حجزَ الطفل وحده في المستشفى، لكن الأمّ لم تكن لترضى عن ذلـك الإجراء الذي يُعدُّ أمـراً روتينياً عندهم، فلجأتْ للبروفسـور داوود عبـد الحميـد، وبيّنتْ له أنّ الولد لا يتحدّث اللغة الفرنسـيّة، وأنّها لا تسـتطيع تركه وحده في المستشـفى مع أنـاسٍ لم يألفهم بعد. تدخّل الدكتور داوود لدى الإدارة كي تسمح للأمِّ بالبقاء مع الطفل

في غرفتـه. لم تكن لديهـم ترتيبات لذلك، فمـكانُ الحجز قاعة كبيرة مقسّـمة بحيطـان بلوريّة تفصل كلّ سريـرٍ عن آخر في غرفـةٍ مربّعةٍ صغـيرة يُسـمونها «بوكـس» Box. وبالإضافـة إلى السّريـر، تحتوي الغرفـة عـلى مقعدٍ مُخصّص للمرافق ودولابٍ صغير في أسـفله درْج يحتـوي على سريرٍ يسـتعمله مُرافـق المريض في المسـاء، وفي الصباح الباكـر يتمّ إرجاع السرير إلى مكانه، ويُقفل الدرْج. لم يصمد السرير كثيراً، فقد سـقط في الليلـة الثانية، وتكسّر لأنّـه لم يتحمّل وزن الأم الزائد، فهو ربّما كان مصنوعاً خصّيصاً لصاحبات الوزن الخفيف!

وظلّتْ الأمُّ تصل ليلها بنهارها على ذلك المقعد!

(11)

طلـبَ البروفسـور داوود عبد الحميـد من الأمِّ أن تـشرح للولد كلّ ما سـيمر به من تجـارب، بدءاً بحمله في المصعـد ونقله إلى غرفة العمليّات الواسـعة والمُضيئة، وانتهاءً بوضعـه تحت الجهاز الدائري المُـضيء مـن طـرف مجموعةٍ مـن الأطبّاء. فالأمُّ سـتغيب عنـه لفترةٍ قصيرة، وسـيكون بعدها تحت تأثير المخدِّر، وعندما يستيقظ سيجدُ نفسـه في قاعةٍ أخـرى وعلى قدمه جبيرة وحقنـة وريدية لا تؤلم. لقد أرادوا أن تخبره بتلك التفاصيل حتى لا تُسبِّب له العملية أيّ ذعرٍ أو هلع أو صدمة

شرحْـت الأمُّ للطفـل ذلك وأبدى اسـتعداده لتقبّل الأمر. وقبل نقلـه إلى غرفة العمليّات، تم إعداده لهذا التدخل الجراحي، وناولوه حبّـةَ دواء يضعها تحت لسـانه. طلبـتْ الأمُّ من الممرضـة أن تمنحها بعـض الوقـت لترافقـه، وقد قبِلـتْ بذلك رحمـةً بها وعطفـاً عليها، شرط أن تعـود من نصـف الطريق المؤدّيـة إلى الطابـق الثامن حيث سـتتمّ العمليّة. صعدتْ معه في المصعد لتخفّف عنه بعض الضغط،

ولكنّه كان تحت تأثير حبّة المخدّر التي ناولوه إيّاها، الأمر الذي ترك أثـراً بالغـاً في نفس الأم التـي لم تكن تتحمل مُشـاهدة ولدها يحملق في اللاشيء، يضحك نصـف ضحكة، منعدم التركيز. توقّفتْ الأمُّ، مثلما تمّ الاتّفاق عليه، عند الطابق الرابع، واستقلّتْ المصعد النازل. ذرفتْ بعض الدمـوع في المصعد، وعادتْ إلى مقعدها في «البوكس» الصغـير، حينها كان هناك طفلٌ صغـير وحيدٌ في «البوكس» المجاور يبلغ من العمر شهراً، ينتظر إجراء عمليّة «فتق hernie» أرادتْ الأم الطالبة أن تُفرِّغ فيه شـحنةَ الحنان التي تغمرها، ولكنّها لاحظتْ أنّ الممرضات كـّن يقمن باللّازم معه، وكنَّ يعاملنه برفقٍ تام. وكان قد خرج قبل ذلك بسـاعة مـن غرفة العمليات ولا يـزال وقتها نائماً، و الممرضّات يزرنه في كلّ مرّةٍ للاطمئنان عليه. ولقد حاولتْ إسـكاته عندما بدأ في البكاء، وأبلغتْ عنه إحدى الممرّضات فأسرعتْ نحوه وبيدها زجاجة الرضاعة!

في المسـاء جاءته أمّه الشّابة التي لم يتجاوز عمرها إحدى وثلاثين سـنة. كانت موظّفةً بفندق «لومريديان»le Méridien، وكانت على دراية بأنّ الأطفال من مثل سنّ ابنها البكر وأكبر لا يُسمح بأن يبقى معهـم أحد. سـألتْها كيف اسـتطاعت أن تجد مكانـاً تحجزه بجانب ولدهـا؟ فعادةً لا مكان للمرافق هنـاك، وكانتْ إجابةُ الأم أنّ الولد لا يستطيع تحدّث اللغة الفرنسية، لأنّه وافدٌ جديد على البلد!

بقيتْ الأم جالسـةً بجانب سرير الولد تستحضرُ ذكريات مرضه كلّها، وتناجي ربها أن يشفيه شفاءً لا يغادر سقماً. وبعد مرور ساعاتٍ ثـلاث، أبلغوهـا أنّه قـد خرج مـن العمليـة، وأنّه موجـود في غرفة الإنعاش، ثم جاؤوا به بعد ذلك وهو في كامل وعيه، وهي تحمد الله على ذلك. كما أنّه كان يحمل جبيرةً ستظلّ على ساقه لمدة أشهر ثلاثة. مضتْ الأيام في المستشـفى والأمُّ ماكثة بجوار ابنها، تنام وتسـتيقظ عـلى تلك الهيئـة إلى أن انتهتْ فترةُ الحجز، وغادروا المستشـفى، بعد أن أصبح ابنها قادراً على السّـير بالجبيرة، وظلّتْ ترعاه تارةً وتدرس تارةً أخرى، ولا تعرف كيف توفّق بين الأمرين!

(12)

خرجتْ الأمُّ مع ولدها من المستشفى تجاه غرفتها الكائنة في إقامة «رزيدانس دو فرانس .Résidence de France» وقد منَّ الله عليها أن وجدتْ بين جيرانها طلاباً موريتانيين، كما أنّ الله منحها جارةً صديقة وفيّة من اسكتلندا؛ هي أستاذة لغات في جامعة العلوم الإنسانية. فلولا هذه الجارة، ولولا مساعدة الطلاب الموريتانيين، لما استطاعت متابعة دراستها في ذلك العام. لقد ساعدها في رعاية الطفل الكثير من الطلاب الموريتانيين الذين أصبحوا ذوي شأن لاحقاً ومن بينهم مسؤولين في الدولة الموريتانية. كانت تملكُ ثلاجةً صغيرة تضعُ فيها كلّ ما يمكن أن يحتاجه الولد من أكل وشراب. وكانت أحياناً تغادرُ بيتها الثامنة صباحاً حتى قبل قدوم من سيعتني به، فبعضهم كان مشغولاً إلى غاية الساعة العاشرة صباحاً ليأتيه بعد ذلك، وهكذا يظلُّ الولدُ وحيداً لمدّةٍ تتجاوز أحيانا الساعتين، لاسيما في الصباح الباكر، وحتّى في المساء، ثمّ يأتي من سيعتني به، ويدخل عليه من النافذة الكبيرة التي تُعدُّ المنفذ الوحيد الموصل إلى الطفل،

حيث إنّها كانت حريصـةً على إغلاق باب غرفتها بعد خروجها كي لا يخـرج. كانـْت نافذتها تُطلُّ على نافذة جارتهـا « مارغريت كامبيل Margaret Campbell » الأسـكتلندية، التـي كانـتْ عنـد عودتها مـن عملها، في الصبـاح أحياناً وأحياناً أخرى في المسـاء، تدخل إليه بدورها من النافذة، لتسأله مُردّدةً بعض الكلمات التي كانت تحفظها بعـد كتابتها: «هل أنت جوعان؟ هل أنت عطشـان؟ أتريد الذهاب إلى المرحـاض؟ مـا رأيك لـو نذهب إلى البخـر (كما تقـول هي؛ أيْ البحر)؟» (الذي كان قريباً من مقرّ السكن). كانت مارغريت إنسانةً رائعـة، حنونـة ومربيّة فاضلة. وكان هـو، في أيامه الأولى خاصةً، لا يَسمح لها عند قضاء حاجته بأن تقوم بنزع ملابسه، لكنّه أصبح، بعد ذلك، مُتقبّلاً لهذه الفكرة. فكانت تفتح له أزرار ملابسـه، ثم تتركه، لتعـود بعد ذلك. كما أنّه أصبح يعدها أمّـاً ثانية له! وكان بقيّة الطلبة يعتنـون به، ويوزّعون هذه المهمّة بينهم، فكانوا يخرجون به أحياناً في نزهة، حتى تعود الأمُّ مساءً من الجامعة، وأحياناً أخرى كان هو ذاته يشـعر بوجـود مارغريت في غرفتها، فيطلّ عليها مـن النافذة، ويبدأ بالبـكاء ويُنـادي عليهـا. ورغـم أنّ الـدور لم يكن عليهـا، وكثيراً ما تكون مشـغولة بتصحيح الأوراق أو بترتيب بيتها أو بعض شؤونها الخاصة إلا أنّها كانت، مع ذلك، تترك كلّ شيءٍ معلّقاً وتأتي إليه.

بعد مرور أشـهر ثلاثة، عادتْ الأمُّ إلى مستشفى «لانفال»، للقاء البروفسـور داوود عبد الحميد الذي أخبرها بأنّه سيقوم بنزع الجبيرة مـن عـلى رجلـه، وأنّه سـينزع أيضاً إبـرةً أو شريحة حديديـة كان قد أدخلهـا، للضرورة، في رجـل ابنها أثناء إجـراء العمليّة. كما أخبرها بأنّه سيقوم بتخدير ابنها تخديراً عامّاً، لنزع الشريحة، ثمّ لِيتيح الفرصة لطبيب الأسـنان، أثناء التخدير، لعلاج أسـنان الولد المسوسـة، ولم يتطلّب ذلك إلا حجزاً ليوم واحد في «المستشـفى النهاري Hôpital de jour»، أمّا الأمُّ فقد بقيتْ في غرفةٍ مسـتقلّة، مشـتاقة لرؤيته بعد نزع الجبيرة معافى وقد عاد لوضعه الطبيعي. بعد مرور نحو سـاعة، خرج الابن إلى الغرفة التي توجد فيها الأمّ. وما إن دخل عليها حتى سـارعتْ بالنظر إلى موضع العمليّة، وقد شعرتْ بتحسّنه الملحوظ، ولكنّها شعرتْ أيضاً أنّه مازال بحاجة لعلاج إضافي. حمدت الله كثيراً على تحسّـن حال ابنها، ثم دعته دعاءً طويلاً أن يشـفيه شفاءً لا يغادر سقماً. بعدها أرسلها الطبيب لقسم التدليك، حيث أمضتْ مدةً زمنيّة في التدليك. كانت السـنة الدراسية قد شـارفتْ على الانتهاء، وكان الـكلُّ مشـغولاً في التحضير للامتحانات. تحدّثتْ الأمُّ مع مسـؤولة الشـؤون الاجتماعية في المستشفى حول موضوع اشتغالها، واشتغال كلّ مـن كان يسـاعدها في العنايـة بابنها، في التحضـير للامتحانات النهائيـة، فنصحتهـا بالذهـاب إلى مقرّ البلدية لعلّ المسـؤولين هناك

يُقدِّمون لها حلولا. أجرتْ معها «مسؤولة الشؤون الاجتماعية في البلدية Assistante sociale» لقاءً وسألتْها عن عنوان سكنها، وعن حجم مسكنها، وإذا ما كانت تعتني بابنها سابقاً وقبل مجيئها إليها، وعن ساعات الدراسة التي تقضيها في الجامعة، وعمّا إذا كان ابنها يمضي بعض الوقت وحيداً. كان جواب الأمُّ بأنها تسكن غرفةً واحدة تحتوي على حمّام ومطبخ، وأنّ ابنها كان يمضي بعض الأوقات، ساعتين كَحدٍّ أقصى، وحيداً. وعند سماع إجاباتها، قرّرتْ المسؤولة أن تضرب لها موعداً مع وكيل الجمهورية، وأخبرتْها أنّهم سيعاينون ظروف السّكن، وربّما قد يضطّرون لأخذ الابن منها، قائلةً لها بالحرف الواحد: «نحن لا نقبل أن يعيش الأطفال في ظروف غير جيّدة. إنّ قانون الجمهورية الفرنسية لا يسمح بذلك». ثمّ أضافت: «سيدتي، ربّما نضطّر لأخذه نهائياً منك، ليسكن في دور حضانةٍ خاصة بالأطفال!»

(13)

ضاقتْ الأرضُ بما رحبتْ على الأمّ، إذ كيف لها أن تتحمّل تعب هذه السنين كلّها لكي ينتزع منها القانون الفرنسيُّ ولدها. عادتْ والخوف بعينيْها، وممّا زاد الطين بلّة أنّها قد أعطتْهم عنوانَ سكنها الكامل. قرّرتْ، إذن، أن تُغيّر عنوان سكنها،، إذ لم يعد باستطاعتها إيجار بيتٍ مستقلّ بعنوانٍ يحمل اسمها لتفلت من معاينة الشؤون الاجتماعية لظروف سكن الولد. اضطرّتْ للسّكن مع صديقاتٍ موريتانيات كنَّ يقطنَّ مع أخويهما في منزلٍ مؤجّر منذ سنوات، وقد رحّبوا بها بينهم بصدرٍ رحب، جعل الله ذلك في ميزان حسناتهم، وكانتْ السنة تشرف على نهايتها. وفي الوقت نفسه، استغلَّتْ الأم فترة إقامتها هناك لِتجري فحوصاً طبيّة حول مرضٍ ما كانت منذ فترة تعاني منه. وقد نصحها الطبيب، بناءً على الفحوصات التي قام بها، بإجراء عمليّة جراحيّة، ولكنّه أبلغها بأنّ الأمر ليس مستعجلاً، فقرّرتْ تأجيل العمليّة إلى ما بعد انتهاء فترةِ الامتحانات ومعرفتها نتائج تلك السنة التحضيرية.

قدّمتْ الأم طلباً كي يتمّ تحويل منحتها من مدينة نيس في أقصى الجنوب إلى مدينة «ليل»Lille أقصى الشمال. كما قدّمتْ، بالتوازي مع ذلك، طلباً لتغيير تخصّص الطب الذي تمّ توجيهها إليه أوّل الأمر، لاسيما بعد عِلمها بأنّ نسبة النجاح لن تتجاوز نسبة 7٪ لكلّ الأجانب، وأنّ النجاح في السنة الأولى في هذا التخصّص العسير يُعدّ من سابع المستحيلات حتى لأولئك الذين لا هَمَّ لهم غير الدراسة، فكيف بمن هو مشغول بِمعالجة صبيٍّ مع ذلك. وبعد أن تمّ إصدار نتائج الامتحان. غادرتْ الأمّ وابنها على عجلٍ إلى موريتانيا في العطلة، وذلك قبل أن ينكشف أمر سكنها الجديد.

أثناء إقامتها الصيفيّة في موريتانيا، وصلها إشعارٌ بقبول تسجيلها بجامعة «ليل فيلنوف داسك»Université de Lille Villeneuve d'Ascq» للعلوم والتقنيات.

وفي سبتمبر قرّرتْ الذهاب وحدها حتى تعيد ترتيب شؤونها، تقوم بالتسجيل، وتؤجّر مسكناً.

مدينة ليل مدينةٌ كبيرة في الشمال الفرنسي، تقع على الحدود البلجيكية، وتَبعد مسافة أربعمائة كيلومتر عن باريس. تتميّزُ بِجوّها البارد غالباً، وبكثرة الثلوج في الشتاء، بكثرة أعيادها ومهرجاناتها، ومواسمها الاحتفائية الكثيرة؛ «كعيد موسم محار البحر la fête de la moule» فأمام كلّ مطعمٍ، كانتْ تُلاحظ أطناناً من المحار

الفارغ وكذلك موسم «أسواق ليل للأسعار المُخفَّضة la braderie de Lille»، وهي مناسبة تكون فيها الساحات فضاءً لعرض الكثير من السّلع والأغراض، سواء الجديدة منها أو القديمة. وفي هذه الساحات يَحضر أيضاً عازفو الموسيقى والمغنوّن الذين يُضفون الكثير من الحيوية على تلك الأجواء. ثمّة اختلافات واضحة بين مدينتي ليل ونيس، لاسيما في طبيعة الاحتفالات المقامة داخل المدينتيْن؛ فَنيس مدينة تمتاز بما يُسمّى «مهرجان نيس le carnaval de Nice» وهي استعراضاتٌ يرتدي خلالها السّكان أزياءً ملوّنة ومزركشة، وتكون وجوههم مموهَّة كوجوه الأفلام الكرتونية، يرتدون الأقنعة، ويركبون سيارات استعراضيةً مكشوفة. وتُعدّ هذه الاستعراضات تقليداً سنويّاً دأبَ عليه أهلُ الجنوب الفرنسي، وخاصةً في «الشاطئ اللازوردي la Côte d'Azur».

أثناء عطلة عيد الفصح «les Pâques»، كانتْ الأمُّ على موعدٍ من أجل إجراء عمليةٍ جراحية لاستئصال الغدّة الدرقية. وقد قام طبيبها المعالج في مدينة ليل باستقدام ملفّها من مركز الطب النووي في نيس وبعد قيامها بالإجراءات اللاّزمة، حان اليوم الموعود. وقد كان ذلك في يوم من أيّام رمضان الكريم. لم يكن الصوم في فصل الشتاء آنذاك صعباً، عادةً ما تكون المدّة الزمنية الفاصلة بين وقتي الإمساك والإفطار قصيرة.

في يـوم إجـراء العمليّة الجراحيّة، ذهبتْ مـع صديقتها الموريتانية إلى مستشـفى «القديـس دنيSaint-Denis» لأجـل الحجـز. وعند وصولها، طلبوا منها أن تأكل شـيئاً ولو بـدا خفيفاً من أجل البدء في إجراء الفحوصات. ماطلتهم قليلاً، فهي لا تريد أن تُفسـد صيامها، لاسـيما أنّ وقـت الفطـور قد اقترب. عـادتْ صديقتُها إلى مسـكنها الجامعـي، وبقيـتْ هي وحيـدةً تنتظر في المستشـفى. أمضـتْ يومها الأول في إجراء فحوص الدّم والأشعة، حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل وفي الصباح، أُجريتْ لها العملية بحضور طبيبٍ موريتاني مُتربّص في مستشـفى القدّيس دنيس، كانت قد طلبتْ منه هي نفسـها أن يكون حاضراً أثناء إجراء العملية. وفي المساء فتحتْ عينيها على صوت ذاك الطبيب وهو يُناديها باسـمها، ويُحدّثها بالحسّـانية، ثم غلبها النعاس قليـلاً، ولكـنّ رغبتهـا في التقّيؤ طردتْ مـن عينيها النـوم، إذ كانت مُقيّدةً بالأجهزة الطبيّة المثبتة على جسمها، فلم تستطع التحرّك.

بصرتْ بجانبها فشـاهدتْ، بالمكتب المجاور، مُمرّضين جالسـين يراقبونها. أشـارتْ عليهم بيدها فجاءها أحدهم مُسرعاً ليُسـاعدها عـلى التقيؤ. تَحسّـنتْ بعد ذلك حالتُها، وأُخرِجـت من غرفة المراقبة إلى غرفةٍ أخرى.

(14)

خرجتْ الأمُّ الطالبة من غرفة الاستيقاظ إلى غرفةٍ أخرى، ولم تكن تشعر لا بالوحدة ولا بالغربة بسبب زيارة الطلبة الموريتانيين المستمّرة لها، فقد أبدوا لها تعاطفاً رائعاً. هاتفَها أهلُها يوم إجرائها العملية، ولكنّها لم تستطع الردّ على مكالماتهم لأنّ العمليّة كانتْ على مستوى رقبتها، ولم تكن تستطيع التحدّث بصوتٍ واضحٍ مسموع. لقد حاولتْ أن تُسمعهم صوتها فقط ليطمئنوا، ولكنها لم تفلح. الشيء الوحيد الذي سمعته كان صوتُ بكاءِ أهلها خوفاً عليها، ثمّ تمكّنْت بعد ذلك بفترةٍ من التواصل معهم بصفةٍ طبيعيّة الأمر الذي جعلهم يشعرون بالاطمئنان. ومضتْ الأيّام، واستطاع والدُ طفلها القدوم إلى مدينة ليل. وبعد تماثلها للشفاء، غادرتْ الأمُّ المستشفى، بينما عاد والد طفلها إلى أرض الوطن.

هيّأتْ، في عطلة نصف السنة الدراسيّة، الظروفَ لمجيء ابنها الذي لم يجد هذه المرّة من يرافقه من الأسرة، فَقدِم البلادَ وحده ولكن تحت رعاية شركة «الخطوط الجوية الفرنسية Air France» وضمانتها،

ونزل بمطار «شـارل دوغول» الـدولي في باريس، هناك حيث كانتْ الأمُّ في انتظـاره. كان والـده قد أوصى سـيّدةً موريتانية مسـافرة مع ابنه عـلى متن الرحلة نفسـها برعايته والاهتمام بـه، ولكنّها خرجتْ مـن الطائرة قبلـه، وعندما التقتْ أمَّه أخبرتْها بأنّـه لايزال في الطائرة وتحت أعين الطاقم. وقد جاءتْ به بعد لحظاتٍ إحدى المضيفات إلى البهو ليدلَّها على أمِّه التي كانتْ تنتظر بدورها هذه اللحظة. مدّتْ لها الأمُّ بطاقتها الشخصيّة لتتأكد من هُويتها، ثم سلمّتْها إيّاه. وفي اليوم نفسـه، حجـزتْ تذكرتـيْن إلى مدينة نيـس عبر مطـار «أورليOrly» وكانـت قد اتّفقتْ مع صديقتها مارغريت كامبيل، التي سـافرتْ في اليوم نفسه إلى انجلترا من أجل قضاء عطلة، على أن تترك لها مفاتيحَ شـقّتها في وسط المدينة. نزلتْ الأمُّ في شَـقة صديقتها كما تمَّ الاتّفاق عليـه، وفي اليـوم التالي، اتّصلتْ بالبروفيسـور داوود عبد الحميد في مشـفى الأطفال التابع لمؤسّسـة «لانفال». أبلغها الطبيُـب أنّ الولد يجـب أن يُجري عمليةً جراحيّة أخرى، فطلبتْ منه أن يُحوّل لها ملفَّ الطفل الطبّي إلى باريس لأنّها أقرب إلى مدينة ليل مقارنة بنيس التي تبعد كيلومتراتٍ كثيرة عن باريس. وافق الطبيبُ على إرسـال الملف لأستاذه الأبرز في ميدانه «البروفيسور رافائيل سورانج Professeur Raphaël Seringe» في «مستشفى القديس فنسان لبولس Hôpital Saint-Vincent-de-Paul» في قلب باريس.

كانتْ شَـقّةُ صديقتها مارغريت تقع في حي قديم وسـط المدينة. ذات ليلة سـمعتْ طلقاً نارياً قريبا من الشَّـقة وباتتْ مرعوبةً والولد يسـألها: « ما هذا الصوت؟» فتقـول: «لا أعرف»، ولكن من خوفها الذي لم تسـتطع أن تخفيه خاف الولدُ أيضاً، وفي الصباح إذا بجريمة قتلٍ على بعد أمتار من سكنهم.

انتهتْ مهمّةُ الأمِّ في مدينة نيس، وذهبتْ رفقة بعض الطلاب في زيارة إمارة موناكو التي تُعَدُّ من أجمل المدن السياحيّة في فرنسا.

لكـن الموريتانيّـين كانوا يقتـصرون على زيارة الأماكـن الترفيهيّة فيهـا، (قادياهـم لعبة أصلا)! كـما كانوا يقضون ليلة رأس السـنة في فضـاءات الترفيه في نيس، وكان من هؤلاء الكثير من الشـخصيات التي أصبحتْ وازنةً فيما بعْدُ في الدولة الموريتانية!

غادرتْ الأمُّ وطفلها متجهيْن إلى باريس حيث التقتْ البروفيسور سـورانج وطاقمه الطبي. اقترح البروفيسـور هو أيضاً إجراء عمليّة جراحيّـة، وضربـوا لها موعداً في بداية العطلـة الصيفيّة، ثم حجزتْ للولد في ليلة رأس السنة على السّاعة الخامسة صباحاً ليعود للوطن. وفي ليلة رأس السـنة، حرصتْ على ألا تنام خشـية أن يفوّتَ الطفلُ رحلتـه، فإذا ببعـض أفراد الأسرة التـي تضيفهـا في باريس يريدون إحياء رأس السـنة في «جادة الشـانزليزيه les Champs-Élysées» دعتْهـا الأسرةُ للذهـاب معهـم، وبـما أنّهـا لم تَحـضر قـّط مثـل هذه

المناسبات من قبلُ، فقد لبَّتْ الدعوة بكل سرور. كانتْ تلك أوّلَ مرّة تَشهد فيها احتفالات رأس السنة في باريس. توقّفتْ السيارةُ على بعد كيلومترين من جادة الشانزليزيه وساروا مشياً على الأقدام استجابةً لطلب السلطات الأمنية التي تملأ الطرُق، ثم توقفتْ حركة المترو نهائيّاً وغصّ الشارع المذكور بالفرنسيّين وبأناس آخرين من الجنسيات جميعها، وزُيّنت الشوارع والمطاعم والمقاهي بأحلى الحُلل، وارتدى عـمّالُ المقاهي أرقى ملابسهم، لاسيما النساء اللّواتي كنّ يُبالغن في إظهار جمالهنّ، وارتفعتْ الأسعارُ بصفة ملحوظة، خاصّة في المطاعم والمقاهي، وحُجزتْ المقاعد كلّها. وجدوا، أخيراً، مطعماً فيه مقاعد شاغرة، وكانت ستؤثّثُ سهرته مطربة عربية. جلسوا في مقاعدهم، ثمَّ سألوا عن ثمن التذاكر فإذا بأثمانها خياليّة. فعادوا من حيث أتوا، ومشوا على أقدامهم من قوس النصر إلى منتصف شارع الشانزليزيه. دقّتْ الساعةُ صفر منتصف الليل تحديداً، فَسادَ الهرجُ والمرجُ، ولم نعد نشاهد إلا أناساً يَحملون زجاجاتٍ من الخمور المتنوّعة، ويفتحونها لتنهمر شلالاتها إلى الأعلى كما يصنع الصبية بقنينة الكوكا، وغطّتْ الألعاب النارية سماء المكان، وكأنّ القيامة قد قامتْ، فسعوا إلى أن ينأوا بأنفسهم في مكانٍ يأخذون فيه استراحةً حتى تخفَّ الزحمة قليلاً. وجدوا مطعماً شغرتْ فيه بعض الأماكن للتوّ، فجلسوا، وكانت الأكلة المفضّلة تلك الليلة

هي سمك السلمون وكبد البط. ولكنّ الأمّ لم تستحسن، عكس البقيّة، هذه الأكلة. الساعة الرابعة صباحاً، وموعد سفر الابن قد اقترب، والمسافة بعيدة. غادروا المكان إلى المنزل وعند وصولهم، أيقظتْ الأم الابن لتجهّزه للسفر، وأعدّتْ الحقائب، ثم أوصلتْه مع الأسرة إلى المطار. ثم رجعَوا إلى المنزل، وبقيْت الأمُّ مع ابنها حتى أتمّتْ إجراءات السفر كلّها، وكالعادة، سافرَ الولد تحت ضمانة طاقم الطائرة وأنظارهم. أمّا الأمُّ، فقد قصدتْ عائلةً موريتانية غير التي كانتْ تقيم عندها لتأخذ قسطاً من الراحة. وبعد وصولها بنحو ساعة، رنّ جرس الهاتف، فإذا بأحد طاقم الخطوط الجوية الفرنسية التي تقلّ ابنها يخبرونها أنّ الطائرة قد تعرّضتْ لعطب بُعيْد إقلاعها، وأنّها الآن تحاول النزول من جديد والعودة إلى المطار وإلغاء الرحلة، أو إرجائها إلى موعدٍ لاحق.

(15)

همـت الأمُّ بالرجوع إلى مطار «شـارل دوغول» من جديد، وهي بعيـدةً عنـه في ضاحيـة قريبة مـن باريس «بـاسي سـور أور Pacy-sur-Eure» وقبـل أن تهـمَّ بالخـروج رنَّ الهاتـف مرةً أخـرى، وإذا بأحـد أفراد الطاقم يُخبرها أنّ الطائرة قد نزلتْ بسـلام، وأنّ «شركة الخطـوط الفرنسـية Air France » قد حجزت للـركّاب جميعهم في فنـدق «لوميريديان le Méridien»، فلا داعـي لمجيئها، لأنّه قد يتمُّ نقـل المسـافرين في أيّ وقتٍ إلى طائـرةٍ أخرى، وأنّهم سـيتواصلون معها إذا جدّ مستجد في هذا الأمر. ثمّ مرّتْ ساعة ليتصلوا بالأم مرّةً ثالثـة، وليخبروها هـذه المرّة بأنّهم لم يتمكّنوا مـن تهدئة طفلها الذي ظلَّ يبكي باسـتمرار دون أن يعرفوا سـبب ذلـك، فلا هم يتحدّثون لغته ولا هو يتحدّث لغتهم أو يفهمها. سألتْه الأمُّ عبر الهاتف قائلة: « مـا بك يا ابني؟» فـكان ردّه بأنّه يخاف قطة المرأة المضيفة التي معه. طمأنته الأمّ بأن لا يخاف، ثمّ ترجمتْ حديثه إلى المضيفة التي طمأنتْها بدورها ووعدتْها وعداً قاطعاً بأنّها لن تزعجه، وأنّ الأمر لا يستدعي

الخوف. وبعد مرور نحو ساعاتٍ ثلاث، سافر الركّاب من جديدٍ إلى موريتانيا مروراً بداكار على متن «الخطوط الجوية الإفريقية Air Afrique»!

عند وصوله إلى نُواكشوط، هاتفها الأهل هناك لطمأنتها بوصول الولد، لكنّهم أخبروها أنّ حقيبته لم تصل؛ حقيبته التي فيها أدواته الطبيّة الثمينة وملابسه وبعض الهدايا التي أرسلتْها الأمُّ معه!

اتّصلتْ الأمُّ بشركة الخطوط الجوية الإفريقية، فأخبرها المسؤولون عن الحقائب أن لا داعي للقلق، وأنّهم سيهتمون بالأمر، ثم أعطوها رقم هاتفٍ يُمكّنها من التواصل معهم للتثبّت من الأمر. وبعد أشهرٍ من البحث والتحقيق، أبلغوها أنّهم قد وجدوا الأدوات الطبيّة فقط، أمّا الحقيبة فيبدو أنّهم قد نسوها هناك في أثناء توقّفهم في داكار.

(16)

عـادتْ الأمُّ إلى سـكنها الجامعـي في مدينـة ليل لأجـل مواصلة دراسـتها. فالسـكن الجامعـي كبـيرٌ وشاسـعٌ. وهـو بِمثابـة مدينـة مسـتقلّة، توجد به خمس بنايات سـكنيّة بطوابقها مخصّصة للطلاب، إضافـة إلى مكتبة كبيرة في الوسـط وبنايات للمـواد العلمية؛ واحدة للرياضيـات، وأخـرى للفيزيـاء... إلـخ، ومخابـر، ومطاعـم ومقاهٍ جامعية. وبجانبه توجد محطّة للمترو. في تلك الفترة كان الجوّ بارداً، ممطراً ومثلجاً، وكان بياض الثلج يغطّي الطرُقَ والمنازل وحتى ثياب المـارة. وبجانـب غرفة الأم في الحي الجامعي «غالـوا Galois»، كان يقطـن «كريسـتيان Christian» وهـو طالـبٌ فرنسي نجـح في عقْد صداقاتٍ مع الطلبة الموريتانيين، واختلط بهم، وأحبَّ مُجالسَـتهم في المقهـى وفي المطعم. لقد قال لها ذات مـرّة إنّه يُعاني من أورام صغيرة في رأسـه يزعجه منظرها، وتُشـعره بالنقص والدونيّة، سألتْه: « هل اسـتشرت في ذلك طبيباً؟» فأجابها بأنّـه قد عرض حالته على طبيب وطمأنه بأنّها ليست حالة خطيرة، وأنّه بإمكانه استئصال الأورام عبر

الجراحة، لكنّه امتنع عـن ذلك. حاولتْ الرفع من معنوياته، خاصةً عندمـا أخبرها بـأنّ أغلب الفتيات كنّ يرفضنـه، وهو لا يدري ماذا يفعـل، ولماذا يجد نفسـه منبـوذاً من الجميع. أخبرتْه بأنّ هذه المسـألة نسـبيّة، وأنّه ربّما فقط لم يجد الفتاة التي تناسـبه ويسـتحقّها بعد، وأنّ ما عليه سوى التحلّي بالصبر، وبالعزيمة والإصرار كي يظفر بالفتاة التـي يسـتحقّها. خرجـوا ذات ليلـةٍ في جماعـة من المجمع السـكني الجامعـي لشراء بعض الأغـراض، فإذا به يتسـكّع خارجاً من محطّة المـترو، مُردِّداً كلماتٍ بعضها غير مفهوم، وبعضها يبدو أنّها شـكوى مـن ابتعاد البنات عنه وعـدم رغبتهن في مخالطته، إذ من الواضح أنّه يُعاني من مشكلات نفسية عديدة.

وذات مـرة، اجتمـع عـددٌ مـن الطـلاب للذهـاب إلى السّـفارة الموريتانيـة في باريـس مـن أجـل المطالبـة بمِنَحهـم الدراسـيّة، وقد رافقتْهم الأمُّ الطالبة لِحاجةٍ شـخصية لها تطلبها في باريس. من عادة الطلاب هناك ألا يقتطعوا التذاكر، إذ ليس هناك من يجبرك على ذلك، خصوصـاً أن مراقبي التذاكر يصعـدون بين الفينة والأخرى للتثبّت من حمل المسـافرين لتذاكرهم. ولا تخضع الرحـلات جميعها بطبيعة الحال إلى التفتيش، ذلك أنّهم يصعدون مصادفةً، يسـألون المسافرين عـن تذاكرهم، ومن لا يجدون عنده تذكرة يتـمّ إنزاله أحياناً في أول القرية أو مدينة التي يمرون بها، مع أخذ عنوان المخالف وإرسال مبلغ

الغرامة المالية الواجب دفعها، وأحياناً أخرى يكتفون بأخذ العنوان البريدي الذي يكون مُثبتاً عادةً على بطاقة هُويّته، ليرسلوا له إشعاراً بالغرامة الواجب دفعها جرّاء انتهاك قواعد التنقّل، ثمّ يسمحون له بعد ذلك بمواصلة سفره. وفي أحايين كثيرة لم تكن الغرامة تصل إلى المخالفين، إذ إنّ المسؤولين هناك كانوا يختارون، كلّ سنة، مجموعةً من المخالفين وقع اختيارهم عشوائياً لمُحاكمتهم. وبعد سنة على المخالفة يستفيد المخالف من عفوٍ شامل لرئيس الجمهورية يسمح بإعفاء مرتكبي هذه المخالفات من دفع الغرامات!

كان من سوء حظّهم ذلك اليوم أن تمّ توقيفهم من قبل مراقبي التذاكر في مدخل باريس. ولم يكن من بين الموريتانيّين من اقتنى تذكرةً واحدة. اقتادوهم إلى مركز الشرطة (وهذه سابقة من نوعها)، وهناك وجد الطلاب أنفسهم في حضرة مفوّض الشرطة الذي بادر بتوجيه السؤال لهم قائلاً: «ما مشكلتكم؟» ردّوا عليه: «نحن طلاب موريتانيون، وقد نفد ما في حوزتنا من مال نتيجة تأخّر المنح، فقرّرنا التنقّل إلى سفارة بلدنا من أجل المطالبة بالمنحة التي هي حقّنا ولا يمكننا العيش دونها». ثم بادر أحد الطلبة بالحديث وقال: «هذه المشاريع وتلك المحطات الحديدية جلّها من خيرات بلدنا، وإذا اضطررنا للتنقل دون تذكرة فهذا لا يمثّل إلا تعويضاً قليلاً من ثروة بلدنا». ضحك المفوّض حتى بانت نواجذه، فقد كان رجلاً

متسامحاً، وتركهم يذهبون كلّاً حسب وجهته. أمّا الأمُّ وصديقتُها، فقد قصدتا بيت أسرةٍ موريتانية تقطن في باريس، ثمّ عادتا مساءً إلى محطة «غار دُ نورGare du Nord»، ولم يكن بحوزتهما ما يكفي لشراء التذاكر. وقد وجدتا القطار السريع الأخير في ذلك اليوم يستعد للانطلاق بعد نصف ساعة تقريباً. طلبتْ الأمُّ من صديقتها أن تنتظرها للحظة، وتركتْ عندها متاعها، ثم أسرعتْ إلى أقرب فرع بنكيّ لتسحب منه مبلغاً ماليّاً يُمكّنها وصديقتها من شراء تذكرتيْن، لكنّ الوقت كان قد تأخّر، فقد وجدتْه مغلقاً. قرّرتا، إذن، أن تركبا القطار دون اقتطاع التذكرتين، إذ لا خيار لديهما، وليس عندهما ما يكفي من المال لقضاء تلك الليلة في الفندق. ركبتا القطار السريع، وفي أوّل توقّفٍ له، في قرية برجوازية صغيرة تُسمّى «لونجو Longueau» شمال باريس، صعد مراقبو التذاكر، وأخذوا منهما البيانات الشخصيّة، وطلبوا منهما أن تنزلا. امتنعتا في الأوّل عن النزول، وحاولتا التفاوض معهم بالوسائل المعقولة كلّها، لكنّ الأمر لم ينجح. اضطرتا للنزول في محطةٍ صغيرة في قريةٍ نائية، لا فرع بنكيّ فيها ولا فندق، لا شرطة، ولا مقرّات إدارة، لا شيء حقّاً.

استعلمتْ الصديقتان عن موعد إغلاق المحطّة، فأخبروهما أنّها ستغلق بعد ساعة!

(17)

سـألتْ الأمُّ وصديقتها المسـؤولين في المحطّة إن كان يوجد قطار آخر يؤدّي إلى أيّ جهةٍ أخرى، فقيل لهم إنّ هناك قطاراً أخيراً صغيراً سيعبر من هنا في اتجاه مدينة «آميان Amiens» التى تبعد أربع دقائق عن لونجـو، وأنّ ثمن التذكرة فيه زهيد، فرنكات معدودة تملكانها. ركبتـا ذلـك القطـار الـذي أوصلهما إلى آميـان بعد فـترةٍ قصيرة من انطلاقتـه. وهناك سـألتا الجهـات المعنية إن كان يوجـد قطار ذاهب إلى مدينـة ليـل؟، وكانـت إجابتهـم بأنّ القطـار الأخـير ينطلق بعد خمـس وأربعـين دقيقة، ولكنّهم اشـترطوا عليهما حجـز مكانهما قبل موعـد الانطلاق بثلاثين دقيقـة. تركتْ الأم أمتعتهـا عند صديقتها في المحطـة، واتجهـْت إلى مركـز المدينة مسـتدلّةً في ذلـك بتوجيهات الأسهم والعلامات في الشارع علّها تجد موزّعاً بنكياً آليّاً.

وجدتْ الأمُّ الطالبة الشـباك الآلي (الأتوماتيكي) وسـحبتْ منه المبلـغ الـذي تحتاجه. ولمّـا عادتْ إلى محطـة القطـارات، وأرداتْ أن تحجز لهما تذكرتيْن، اعتذر لها المسـؤول هناك بحجّة أنّها قد تجاوزتْ

الوقت المسموح فيه بالحجز. حاولْت الصديقتان أن تجدا طريقةً ما للحجز، لكن دون جدوى، ثمّ ذهبتْ الأمُّ الطالبة تبحثُ عن هاتفٍ خارجي لتتّصل بمسؤولين في جامعة آميان. وقد سألتْهم عن إمكانية وجود طلبة موريتانيين في الجامعة حتى تتواصل مع أحدٍ منهم، أيّاً كان، المهم أن يكون موريتانيّاً. وكانتْ إجابتهم لا يُمكن لها القيام بذلك بصفةٍ مباشرة، ولكن يُمكنها، إذا ما كان الأمر مستعجلاً، تدوين رسالتها وتعليقها عند مدخل السكن الجامعي، ربّما يمرّ أحد الموريتانيين ويقرؤها! مدّتْ الطالبةُ المسؤولةَ رقم هاتفها، وذكرتْ لها المكان الذي هما فيه، وطلبتْ منها التواصل مع أيّ طالبٍ موريتاني علّه يتّصل هو بدوره بهما على ذاك الرقم.

في مدينة ليل، كان النظامُ مختلفاً تماماً، فعندما يرغب شخصٌ ما في التواصل مع أحد طلبة السكن الجامعي، كانت «مُدبّرة concierge» السّكن الجامعي هناك، التي لديها أرقام الغرف جميعها، تنادي برقم الغرفة في الطابق الذي يسكن فيه المعني بالأمر ليسمع هذا الأخيرُ اسمه، ويفهم أنّه هو المراد من بين جميع الطلبة، وينزل للردّ على المكالمة، ولكن يبدو أن الأمر مختلفٌ تماماً في آميان.

مرتْ ساعتان ولم يتصّل بهما أيُّ موريتاني. أعادتْ الطالبتان الاتصال، وكانت إجابة الطرف الآخر هي نفسها؛ إنّ مهمّتهم لا تتجاوز تعليق الرسائل في المكان المخصّص لها، لا أكثر ولا أقلّ.

قرّرتـا أن تبحثا عن فندقٍ تبيتان فيه ليلتهما مع العلم أن إيجار الفندق أرخص في مدينة آميان من باريس. وكان البدء بفندقٍ بجانب المحطة وقد اعتذر مسـؤول الاسـتقبال فيه، بمجرّد رؤيتهما بِزيّهما التقليدي الملحفة، عن تلبية طلبهما، بِحجّة عدم وجود مكانٍ شاغر في النزل.

تابعتْ الطالبتان البحـث في الفنادق المجاورة جميعها تقريباً، وفي كلّ مرّة كان المسؤولون هناك يبدون اندهاشهم وحيرتهم من طريقة لبسهما، ثمّ يعتذرون على الفور. في طريق عودتهما إلى المحطة، تقفّتْ أثرهما مجموعةٌ من كهول العرب كانت معروفة في مدن فرنسـا كلّها تقريبـاً، مجموعة لا شـغل لها سـوى الجلوس في الشـارع ومعاكسـة الفتيات. لَحق هـؤلاء الرجال الطالبتيْن إلى المحطّة، ممّا جعل الخوف يـدبُّ إلى نفسـيهما، لاسـيما أنّ المحطة كانـت وقتذاك خاليـةً إلا من هـؤلاء الكهـول وعمّال المحطة. سـألتْ الطالبتان أحـد العاملين إن كانـت المحطّة تغلـق أبوابها في وقتٍ محدّد؟ فأجابهـا بأنّ ذلك يكون عادةً على السـاعة الواحدة ليـلاً، ممّا يعني أنّه مازالت سـاعة واحدة على إغلاقها.

(18)

بـدأ الخوف يـدبُّ إلى قلبـْي الأم الطالبة وصديقتهـا، خاصة مع اقتراب موعد إغلاق المحطة. فقد خشـيتا أن يتمَّ إخراجهما في غسق الليل من المحطّة والرمي بهما في شـوارع المدينة الخاوية. فكّرتْ الأمُّ الطالبـة في إيجاد طريقة تتجاوزان بها هـذه المحنة، ثمّ لمعتْ في ذهنها فكرة، وقرّرتْ مع صديقتها الدخول إلى حمّام المحطة، وتغيير لباسهما التقليدي بلباسٍ آخر. فَعلتا ذلك، وارتدتْ كلٌّ واحدةٍ منهما حجابا، ذلك أنّ الناس هناك ربّما يكونون قد اعتادوا أكثر على رؤية الفتيات المحجّبات بدل مرتديات الملحفة، ثم غادرتا المكان لتدخلا إلى فندقٍ بجانب المحطّة، وهو، بالمناسـبة، الفندق الأوّل نفسه الذي بحثتا فيه أوّل الأمر عن غرفةٍ شاغرة. وقد كانت إجابة عون الاستقبال مختلفةً هـذه المـرة عـن الإجابـة الأولى، حيث عـرض عليهما غرفـةً واحدة لشـخصين، إذ هـي كلّ ما يتوفّر لديـه وقتذاك. فرحـتْ الصديقتان بهذا العرض المغري، ثم دخلتا الغرفة والإعياء الشديد بادٍ عليهما

خرجتا بعد ذلك لبهو الفندق تبحثان عن مطعم تأكلان فيه، فوجدتا أنّ مطعم الفندق قد أُغلق. ارتمتْ كلٌّ واحدةٍ منهما على سرير، وغطّتْ في نوم عميق حتى الصباح. وبمجرّد استيقاظهما صباحاً، اتّصلتا بالمحطّة هاتفياً، فأخبروهما أنّ أوّل قطارٍ يتّجه إلى مدينة «ليل» سيكون على الساعة التاسعة صباحاً. حجزتا فيه مقعدين، ثمّ خرجتا إلى قاعة الاستقبال بِزيّهما الرسمي، الأمر الذي أثار دهشة الجميع هناك. دفعتا الفاتورة وغادرتا، ثم سافرتا إلى مدينة «ليل» عبر «القطار السريع TGV» وهما تحمدان الله على ذلك.

(19)

اقتصرتْ حركةُ الأم الطالبة بعد وصولها على التنقّل بين محطة المترو القريبة من السكن الجامعي الفسيح ومكاتب الهجرة، وبين المحطة التي تليها والتي تحتوي على مجمعٍ تجاري كبير «أوشان Auchan» قرب «دار البلدية Hôtel de ville» ، يوجد به كل ما يخطر على البال من محلاتٍ ومطاعم ومقاهي وبنوك. لن تنسى الأم ذلك الكهل الذي كان يجلس كلّ يوم بالقرب من الموزّع الآلي لِبنك «كريدي ليونيه Crédit Lyonnais»، مبعثر الرأس، متّسخ اللباس، حاملاً قارورة خمر. وقد كان الجميع، مع ذلك، ينظر إليه بكثير من الاحترام والتبجيل. لم يكن يزعج أحداً من المارّة، بل إنّه كثيراً ما كان يتبادل أطراف الحديث مع المارّة بكلّ ثقةٍ وأدبٍ واحترام

«والأمر الذي لفتَ انتباهها أيضا هو الاعتناء بذوي الإعاقة وكبار السن أيضاً، وتخصيص طرقٍ لذوي الاحتياجات الخاصّة في ذلك المجمع التجاري الكبير، والأمر نفسه ينطبق على الحافلات

أيضـاً، حيث دُوّنتْ فيها عبارات إرشـادية تحثّ الراكب على تبجيل المسنين وذوي الاحتياجات الخاصة وترك المقاعد لهم.

لا تنسـى الأمُّ أيضاً كيف اقترب منها رجلٌ وهي تصعد السـلالم المؤديـة إلى المجمـع التجـاري وأدخل يـده في حقيبتها، ولمـا انتبهتْ وصرخـْت قائلة: «سـارق!» فقال لها: «أنت عربية؟ اسـمحي لي!»، وتركتْه وشأنه.

في تلك الفترة تم تعيين وزير داخلية فرنسي من اليمين اسمه «شارل باسـكوا Charles Pasqua»، وقـد أقـرَّ هـذا الوزيـر قوانين عديدة ضـد الهجـرة والمهاجرين، وكانت فرنسـا من أكثر الدول اسـتقطاباً لهـم، الأمر الـذي أدّى إلى اندلاع إضراباتٍ في كثيرٍ من المؤسّسـات التعليميّـة احتجاجـاً على تلك الإجـراءات التي تنظـر إلى الأجانب باعتبارهم سـكاناً غير مرغوبٍ فيهم في فرنسا ولا مُرحَّب بهم. وقد ظهرتْ إلحاقاً بذلك جماعات عنصرية عديدة تُعرف بطريقتها الشاذّة في حلاقة الشعر، يُسمّونها «السكينهيدز les skinheads» ويقال إنّ أعضاءها من حزب «الجبهة الوطنية le Front National» إنّها تذكر كيـف جاءهـم، ذات ليلةٍ من تلك الليالي الجامعيـة، طالبان يرتجفان خوفاً لهول ما شاهداه، وقد قالا إنّهما كانا في محطة القطار في مدينة ليل في انتظار المترو، وإذا برجلٍ آسـيويّ الملامح قادم برفقة فتاةٍ فرنسيّة. ركبـوا جميعهم المترو، وبعـد مرورهم بالمحطـة الأولى توقف المترو،

وصعـدتْ جماعة من السـكينهيدز. وبمجرّد أن رأوا ذاك الآسـيوي يَضمُّ بذراعيه رفيقته الفرنسـية، انهالوا عليه ضرباً وشتماً، ولم يستطع أيُّ راكبٍ أن ينبس ببنت شـفة بمن فيهم الموريتانيون أنفسهم، حتى أُغمـي عليه، ثمّ نزلوا في المحطة الموالـية وتركوه بين الركّاب يتخبَّط في دمه، بين حياةٍ وموت!

(20)

اتّصلَ الطالبان الموريتانيـان الموجودان في الحافلة بشرطة النجدة التـي دخلـت عليهـم في المحطة التاليـة، ونقلوا الفتى الآسـيوي إلى المستشـفى، بينما تمّ إنـزال صديقته للتحقيق معها، واسـتفسروا من الركّاب عن طبيعة الفاعلين.

كانت فرنسـا يومها واقعة تحت حكم الحزب الاشـتراكي برئاسة فرانسـوا ميـتران والوزيـر الأول «بيـير بيريغوفـوا Bérégovoy Pierre»، الذي تمّ اتّهامه وقتها بقبول رشـاوى بـلغت مائة ألف فرنـك، الأمر الـذي وفّر للصحافة مادّةً زخمـة للحديث. وقد يكون الرجـل مظلومـاً، كـما اتضـح لاحقاً في تقاريـر نُشرت في نهاية سـنة 2000، ولكنّه صار موضع حديثِ تَندّرٍ في الأوساط كلّها، وكانت تنهال عليه الشـتائم، ويعلو صراخ الناس كلّما زار موقعاً شـعبيّاً ما، الأمـر الـذي دفعه إلى اتّخاذ قرارٍ وضعَ حدّاً لِحياته بنفسـه. ففي ذات يومٍ قرّر الخروج في نزهةٍ مع سـائقه إلى بحـيرةٍ في أطراف العاصمة،

واستغلَّ نزول السائق ورجل الأمن لاستطلاع المكان، ثم صوّبَ إلى رأسه طلقتيْن من عيارٍ ناريّ وتوفّي في عين المكان.

كانت تلك السنين عصيبةً على اليساريّين الفرنسيّين جميعهم، حيث إنّهم تلقّوا خسارةً فادحة في الانتخابات التشريعية. كان أمين الحزب اليساري آنذاك «لوران فابيس Laurent Fabius»، وهو رجلٌ سياسي ينتمي لأسرةٍ فرنسية ثرية، وقد تقلّدَ مناصب كبرى منها وزير الخارجية ورئيس المجلس الدستوري، ومارس وظائف كثيرة أخرى. لقد كان رجلاً هادئاً، والذي اعترف بالهزيمة بأسلوبٍ ديمقراطي راق وفي خطاب مؤثر.

تتالتْ على أعضاء هذا الحزب، بعد ذلك، الهزائم، الأمر الذي جعلهم يفقدون منصب رئيس الجمهورية الذي كان يشغله آنذاك فرانسوا ميتران، لينجح اليمين ويكون رئيس الجمهورية جاك شيراك ووزيره الأول «إدوار بالادورÉdouard Balladur».

من الأشياء التي ظلّتْ، هي الأخرى، عالقةً في ذهن الأم حادثة اختطاف في مدرسة ابتدائية، كيف دخل ذات يوم رجلٌ أربعيني، يُسمّى «إريك شميت Érick Schmitt» مُلثّماً إلى مدرسةٍ بها أطفال، وكان مُدجّجاً بالسلاح، ويرتدي حزاماً ناسفاً. ولمّا وصلتْ أصداء هذا الخبر مسامعَ أولياء الأطفال، سارعوا دونما تردّدٍ إلى محاصرة الرجل والوقوف بوجهه يطالبونه بالإفراج عن أبنائهم الذين

اختُطفوا في قاعةٍ كبيرة، وقد لبّى الرجل طلب بعض الأولياء، بينما رفض طلبات أولياءٍ آخرين. وممّا ظلّ محفوراً بذاكرتها كذلك موقف المعلّمة البطولي يومذاك، فهي التي أبتْ أن تغادر تاركةً التلاميذ الأطفال يواجهون مصيرهم المحتوم مع ذلك الإرهابيّ الغريب. فهي لم تستغلّ الفرصة للهرب، إنّما قرّرتْ البقاء مع الأطفال تحمّلا لمسؤولياتها تجاههم، فقد اعتادوا وجودها، واستأنسوا بها، حتى ألفوها، وأصبحوا يشعرون بالاطمئنان معها. ولقد استغلّتْ تلك اللحظات الحرجة، لتوزّع عليهم بعض الأغذية والأغطية الموجودة في المدرسة بعد أن سمح لها الرجل الخاطف. أصبحتْ هذه القضيّة محطّ أنظار أجهزة الدولة الفرنسية كلّها، والرأي العام فهي قضية تمُّس الشأن العامّ بدرجةٍ أولى. وكانت تلك المَدرسة تتبع ضاحية «نويي سُرْسين Neuilly-sur-Seine»، وكان النائب المنتخب منها هو نيكولا ساركوزي الذي أدّى دوراً رائداً في دائرته الانتخابية. وقد كان، بالمناسبة، أصغر نائبٍ في البرلمان آنذاك. أمرَ الخاطفُ الجهات المعنيّة بأن يوفّروا له سيارةً مليئة بالنقود، تتقدمها سيارة وأخرى تتبعها. وكان أفراد الشرطة يتواصلون معه بمكبّرات الصوت. ولقد استجابوا لطلباته كلّها حينما كان داخل المبنى؛ فلقد طلب منهم أن يزوّدوه بتلفاز وماكينة صنع القهوة وأشياء أخرى من هذا القبيل. حارَ الفرنسيون يومها كيف يتعاملون مع هذا الخاطف الغريب

والمدجّج بالسلاح وبحزامه الناسف، لاسيما أنّه قد هدّدهم في غير مرّةٍ بأنّه مستعدٌّ للضغط على زرّ التفجير في أي لحظةٍ لينسف المبنى كلّه بمن فيه. لم يكن ينام أبداً، وأصبح الأطفالُ يُخاطبونه بـ«السيد»، وأحياناً كانوا يسألونه عن أمورٍ ما، وكان هو يُجيبهم بكلّ ودٍّ. لقد جاؤوا بِجميع المتخصصين من أطباء نفسيين وغيرهم، كما حضر، وقتذاك، المدّعي العام والقضاة والوزراء والنواب والعمد، لا لشيءٍ إلّا من أجل إقناعه عبر مكبّر الصّوت بالعدول عن طلباته، وتسليم نفسه، ولكن دون جدوى!

(21)

اهتـدى أعوان الأمن إلى طريقةٍ يَحتالون بها على الرجل الخاطف، فقـد زرعوا في جهـاز التلفاز الذي أمرَ به كامـيرا صغيرة تُمكّنهم من مراقبتـه وتتبّع خطواته. لم ينَم الرجلُ لمـّدة أيام ثلاثة متتالية، كما لبّوا له طلباته كلّها من سـياراتٍ ومبالغ مالية مطلوبة. وفي اليوم الرابع، اسـتغلّ أعوان الأمن غفوةَ الرجل، فنزلوا عليه بواسطة حبل علوي وحاصروه من الجهات كلّها، ووجّهوا السـلاحَ لرأسه، وحين تحرك توجسـوا من اسـتقاظه أطلقوا وابـلاً من الرصاص على رأسـه كان كفيلاً بوضع حدٍّ لِحياته ولهذه المعاناة

لم تكـن الأمُّ تجد وقتاً لمتابعة علاج الطفل أثناء السـنة الدراسـية، فسـاعات الـدروس كثيفـة، ووقتها مـوزّع بين الحصص الدراسـيّة والأعـمال التطبيقيـة والأعـمال الموجّهـة. وبمجرّد انتهـاء الامتحان الأخـير، بـدأتْ الأمُّ تُجهّـز نفسـها لاسـتقدام الطفل، الـذي أصبح بإمكانه السـفر نظـراً لامتلاكه، أخيراً، جواز سـفر. اسـتقبلتْه الأمُّ، كعادتهـا، في مطار شـارل دوغـول في باريس، وأخذتْ له استشـارةً

مع طاقم البروفيسور سورانج في مستشفى القديس فنسان لبولس بشارع «دانفير روشرو Denfert-Rochereau» بالدائرة الرابعة عشرة في باريس. أجرتْ مساعدة البروفيسور، التي كانت طبيبةً جزائريةً مؤدّبةً فارعة القامة، للطفل الفحوص اللازمة. التقتْ الأمُّ بعد انتهاء الفحوص بالطاقم الطبي بقيادة البروفيسور رفائيل سورانج الذي أخبرها بأنّه من الصعب أن يجدَ لها موعداً في الوقت الحالي، وأنّ الأمرَ قد يتطلّبَ الانتظار لبضعة شهور، ولذا عليها أن تمّده برقم هاتف كي يتصّل بها في حالة تغيّب أي مريض ويبلغها ليأخذ الطفل مكانه! لكنّ لا مقرّ سكنٍ للأمّ في باريس بعد، وهي لا تملك رقم هاتفٍ ثابت. أعطتْهم أرقامَ هواتف بعض الأُسر الموريتانية على أمل أن يتواصلوا معها إذا ما جدَّ جديد، وذهبتْ هي إلى أُسرةٍ موريتانية في منطقة النورماندي la Normandie»، مكثتْ عندها أياماً، ثمّ اتصلتْ بقريبٍ كان معها في مدينة ليل، وزوَّدها بعنوان منزلٍ قد أعطاه عمدةُ باريس سابقاً لقريبٍ لهما مسؤول في الدولة الموريتانية ويستضيف فيه بعض الأهالي، لأنّه كان، بحكم عمله وموقعه، لا يُقيم عادةً إلا في الفنادق. أمّا المنزل، فيَسكن فيه ثلاثة طلبة هم: ابن السّيد نفسه، وقريبان آخران، ويحتوي على صالةٍ وثلاث غرف.

استقبلها اثنان من الإخوة عند مدخل باريس، وأوصلوها إلى المنزل الذي يقع بالقرب من المستشفى الذي يتعالج فيه الطفل، في الدائرة الثالثة عشرة في قلب العاصمة باريس. انزاح عن قلب الأمِّ همٌّ كبيرٌ؛ همّ السّكن. فهي غير قادرة على تحمّل تكاليف الإيجار الباهظة.

هي بحالٍ أفضل الآن، فهي تملك منحةً لثلاثة أشهر، وقد أرسل لها الأهل بعض المال. وبما أن مشكلة السكن قد حُسمتْ، فإن تعاون معها الإخوة في المصروف هناك فنعم ذلك، وإلا فعليها أن تأخذ على عاتقها مسؤوليّةَ تحمّل تكاليف المعيشة وأن تقوم مقامَ الأم أو الأخت الكبرى في المنزل الذي استقلَّتْ بغرفةٍ منه. وفعلاً، فقد وقع بعض التعاون وإن كان محدودا ، وتكفّلتْ هي بكلّ الحاجات الاخرى إبان مقامها معهم. كانت عندما تنهي مشاغل المنزل من تنظيف وطبخ، تأخذ الطفل بعد الغداء أحياناً إلى ساحة عمومية للألعاب، وأحياناً نادرة تأخذه لزيارة «حديقة اللوكسمبورغle jardin du Luxembourg» التي تُعدُّ من معالم السياحة الفرنسية، فهي حديقة واسعة المساحة، متنوّعة الأشجار، وأحياناً أخرى تأخذه لزيارة برج إيفيل، الذي يُعَدُّ هو الآخر، معلماً سياحيّاً من معالم باريس ومن الوجهات المفضّلة للسيّاح.

قرّرتْ، ذات يوم، أن تقوم بزيارة المستشفى فقد فقدتْ الاتصال بالمسؤولين هناك، فوجدت أنّهم هم أيضاً كانوا يبحثون عن طريقةٍ للاتصال بها. وأنّهم قد اتصلوا بالأرقام التي مدّتهم بها كلّها دون الحصول على ردّ. لقد طلبوا منها أن تدخل هي وابنها للحجز، وحجزوا لهما غرفة. أبلغتْ أقاربها الذين يجمعهم السكن معها، وبدأتْ الإجراءات الفعلية للعملية!

(22)

أُجريتْ العملية للطفل، وكانتْ الأمُّ تنتظر في الغرفة تدعو الله أن يشفي ولدها شفاءً تاماً. وبعد مرور ساعاتٍ، جيء به على سريرٍ وهو نائم، وقد أخبروها أنّ ابنها قد استيقظ قبل ذلك في غرفة الإنعاش. وبعد مرور نحو ثلاثين دقيقة، جاء البروفيسور سورانج وفريقه ليعتذر للأم عن حادثةٍ يراها عظيمة، إذ إنّه عندما كان يتفقد المرضى في قاعة الاستيقاظ، لفتَ انتباهه نهوض الولد من السرير في أثناء نومه، فأسرعَ تجاهه خشية سقوطه على الأرض، ولكن إحدى ركبتيْه لامسْت الأرض، فمُسّتْ بخدشٍ صغير، جعلوا عليه بعد ذلك ضمادة، ثمّ بشّرَ الأمَّ بنجاح العمليةً، وأخبرها بأنّهم قد قاموا بإدخال قطعةٍ فولاذية مستقيمة رقيقة ستبقى في رجله لنحو ثلاثة أشهر!

تمكّنْت الأمُّ من البقاء مع الولد بعد نقاشٍ طويل مع الممرّضات اللاتي كنّ يرفضن مثل هذا الأمر. وأصبحتْ لا تكاد تُفارقه نظراً لكونه هو الآخر لا يطيق فراقها. وكانتْ تستغلُّ الفرصة حين

ينـام لتخرج بحثاً عمّا تسـدُّ بـه الرمـق. وكان في الطابق الأرضي من المستشـفى مقهـى يقـدم لزبائنـه بعـض الأطعمـة الخفيفـة كالبيض وبعـض الوجبـات السريعـة المتواضعـة. ولكنّها كانـت، في أحايين أخرى، تخرج من المستشـفى لتبحث في محيطه عن وجباتٍ تشـتريها، خاصّـةً عندما يُغلق مطعم الحي القريب أبوابه. لم تكن الأمُّ، في تلك الأيام، تتلقّى اتّصالات من أحدٍ في فرنسا إلا من صديقتها مارغريت القاطنـة بمدينة نيس، والتي طالما كانـت تتواصل معها لتطمئِن على صحّة الولد. لا، لم يتصل بها أيّ شخصٍ آخر، ولم يزرها أيُّ زائرٍ من أقاربها أو أحد من معارفها بباريس. أخبرتْها مارغريت أنّها قادمة في العطلـة الصيفية لتذهب إلى انجلـترا، ولكنّها قرّرتْ تأجيل حجزها والبقاء في باريس ثلاثة أيّام لتساعدها في العناية بالولد في المستشفى. وصلتْ باريـس، وكانت لا تفارقها في المستشـفى من الصباح حتى السـاعة الرابعة. لقد كانتا تتداولان على الاعتناء بالولد وتتناوبان في أوقـات الأكل، وظلّـت هكذا تصنـع معها إلى أن غـادرت في يومها الرابع إلى لندن.

وفي يومها السـابع في المستشـفى، زارها قريـُب وصديقه قادمين من نيس. وقد نزلا بالمنزل الذي تسـكن فيه، ورافقهما أحد الأقارب مـن سـكان المنزل (ابن صاحـب المنزل). لقد فرحـت أيّما فرح بهذه الزيـارة، ثم رافقتهم إلى الطابق الأرضي لتوديعهم. وبينما كانت الأمُّ

الطالبة واقفةً معهم تحت ظلّ شـجرة في سـاحة المستشفى الواسعة، أخبرهـا ابن مالك المنزل بأنّهم يرغبـون في إخلاء المنزل الذي تقطن فيه، لأنّ صاحبه قد وصل إلى باريس، وهو الآن مقيمٌ في أحد الفنادق الراقيـة. وقد طلبَ من ابنه أن يعتذر نيابةً عنه من الجميع، وأن يجهز للسـفر إلى نواكشـوط في العطلـة الصيفيـة. وبالتـالي فسـيتمُّ إفـراغ المنـزل مـن نزلائه غداً فعليهـا أن تتدبر أمرها وتخـلي المنزل. أطرقتْ الأمُّ برأسـها قليلاً وأومأتْ إيماءةً توحي بِهمٍّ وحزنٍ شديديْن، وبعد هنيهةٍ سـألتْ الإخوة القادمين من نيس إن كان بوسـعهم مساعدتها في نقل بعض الأمتعة والكتب الكثيرة إلى نواكشوط، أجابها القريب القـادم من نيس قائـلاً: «لا تقلقي، سنسـافر أنا وصديقي الخامسـة صباحـاً إلى نواكشـوط، ويمكن أن نسـاعدك في حمـل بعض متاعك إلى نواكشـوط!»، تنفسّـتْ الأمُّ الصعـداء، فهـي فعـلاً محتاجـة لهذه المسـاعدة المهمّة التي أتتْ في وقتها. قالت: « قررت المبيت في المنزل لتجهيـز أغراضها ليلاً وترسـل مـا تريد حمله إلى نواكشـوط ليخفَّ عنها المتاع»!

بعـد صلاة المغرب، انصرفْـت الأمُّ دون حتّى أن تأخذ الإذن من المستشفى، وتركتْ ولدها هناك برعاية الممرّضات في المكتب المقابل للغرفـة، ثمّ شرعتْ في تنظيم أغراضها وأغـراض الولد، واختارتْ الأغـراض الثقيلة التي تريـد أن تأخذها إلى نواكشـوط، فلم يبقَ لها

سوى حقيبة لملابسها وأخرى للطفل. انتهتْ من ذلك في وقتٍ متأخّرٍ من الليل. وقد أخرجتْ للقريب وصديقه تلك الأغراض التي تُريد إيصالها إلى نواكشوط، ثم أغلقتْ على نفسها الغرفة، ونامتْ. في الصباح الباكر، استيقظتْ ودوَّنتْ رسالةَ عتابٍ قصيرة للأقارب أصحاب المنزل، وضعتْها على الطاولة، وأخذتْ حقيبةً كبيرة لها وأخرى صغيرة للولد، وغادرتْ الشّقة. وفي الشارع صارتْ تدفعُ إحدى الحقائب إلى الأمام وترجعُ للأخرى لأنها لم تكن تستطيع حملهما في آنٍ واحد!، زِد على ذلك أنها تَعلم أنّ مدّة حجز ابنها في المستشفى لا تتجاوز ثمانية أيام، وستنتهي في اليوم نفسه. ولهذا ذهبتْ تبحثُ عن كرسيٍّ متحرّك للطفل، لأنّه سيخرج والجبيرة في ساقه، وهو لا يقوى على المشي. هي لا تعرف أين ستذهب، لاسيما أنّ المبلغ المالي الذي في حوزتها قد أوشك على النفاذ، ولم تضع في بالها مسألةَ السكن الذي وجب عليها الآن التفكير فيه!

(23)

بعْـد بحثٍ طويـل، وجدتْ الأمُّ التـي تجرُّ حقائبهـا الثقيلة عربةَ أطفـالٍ، اشـترتْها، وكانـتْ السـاعة وقتهـا في حـدود الحادية عشرة والنصـف صباحاً. اتّجهتْ إلى المستشـفى، فإذا بالمسـؤولين هناك قد أبلغوا السـلطات ووكيل الجمهورية بأنّ أمَّ الولد خطّطت للهروب الليلـة قبل الموعد المحدّد لمغادرة ابنها المستشـفى. وهو ما دفعهم إلى القيام بالإجـراءات القانونية للتكفّل بالولد، بعـد أن اتصلوا بأرقام الأُسر جميعهـا التي سـبق للأم أن مدّتهم بأرقامهـا، من أجل البحث عنها، ولكن دون جدوى.

اعتذرتْ الأمُّ عمّا جرى، ثمّ شرحتْ لهم أنّها كانت مضطرّةً للبقاء خارجاً تلك الليلة لأمرٍ ضروري، وأنّ سبب تأخرها صباحاً إنّما هو البحـث عمّا يمكّنها من نقل الولد عنـد خروجه، كونه لا يقوى على المشي بعد. بـدأتْ في اتّخاذ إجراءات مغادرة المستشـفى، ثمّ غادرتْ وهـي تدفـع عربـةَ الولد بِيـدٍ وأمتعتها بيـدٍ أخرى، حتـى رقَّ لحالها

بعضُ العابرين في الشارع، وجاؤوها مقترحين عليها المساعدة، وقد اختارتْ أن تعطيهم الأمتعة خوفاً على الولد، وتدفع هي بعربته.

في طريقها إلى محطّة سيارات الأجرة، كانتْ الأمُّ غارقةً في التفكير أين ستكون وجهتها، خاصةً وأنها عاجزة عن تحمّل تكاليف الفنادق والشقق. تذكّرتْ سفرها الأخير مع زميلةٍ لها عند مجيء الطفل إلى جهة النورماندي وتحديداً إلى «باسي»، حيث قدّمتها زميلتها في الدراسة، في مدينة ليل، إلى أسرةٍ موريتانية تربطها بها علاقات وطيدة تسكن هناك وبجوارها أُسر أخرى موريتانية ومغاربية. وقد أمضوا معهم أربعة أيام قبل رجوعهما إلى باريس، فيَمّمتهم ولسان حالها يردّد مديحية الشيخ ابراهيم انياس:

«أطيف سرى أم أنّ ركبِيَ يمَّما
مواطن خير النّاس للسّير صمّما
فهل يا تُرى إنّي أنيخُ ببابه
وأمشي بتأديب لطه مسلِّما
أُناجي أمين الله خازن سرّه
ومعطي ذوي الفاقات كنزاً ومغنما
أُناديه طه منحمنّا محمّدا
أتاك خديمٌ شائبُ الفوْدِ مُعْدِما
أأذكر حالي أم كفاك فإنّما

تكرّمت لي من قبلُ ما كنتَ مُلزما
مكارم أهل الجود فيك تجمَّعت
فقد عِشت أسخى النّاسِ بل دمت أكرما»

وصلتْ محطة سيارات الأجرة، بمساعدة بعض المارّة، واستقلّتْ سيارةً إلى المحطة التي يذهب منها القطار إلى ناحية النورماندي وتحديداً إلى باسي، القرية الصغيرة الجميلة والهادئة، الواقعة قرب ميناء «روان Rouen»، والتابعة لمدينة «إيفرو Évreux» وهي قرية تمتاز بالزراعة وبالتنمية وخاصّة تربية البقر، خصّها الله بمناظر خلابة، لتَميّزها بكثرة الماء والخضرة!

أدركتْ الأمُّ وابنها آخر قطارٍ ذاهب إلى هناك فركباه، ثم أطلقتْ العنان للتفكير، وتساءلتْ: «كيف ستستقبلها تلك الأسرة وهي لا تعرفها معرفةً وطيدة؟ وماذا ستفعل إذا رفضتْ تلك الأسرة استقبالها؟ مع أنّها على يقينٍ بأنّ المؤمن لا يُسدّ في وجهه باب!»

(24)

غـادرتْ على متـن القطـار إلى مدينة إيفرو. وحـين وصلتْ قرية بـاسي وجدتْ محطّةَ سـيّارات الأجرة خاليـة، إذ يبدو أنّ دوامهم قد انتهـى. اتصلـتْ الأمُّ بالأسرة رغم علمها بأنّهم لا يملكون سـيارة، ولكـن حباهم الله جاراً موريتانياً من أسرة أهل كامارا (سـيلبابي) لم يـأتِ الزمـان بمثله كرمـاً وودّاً. وحين علم كامـارا أنّ الأم وولدها في المحطة توجّه إليهما بسـيارته الشـخصية وجاء بهما إلى الأسرة التي استقبلتْهما استقبالاً لائقاً. استدعاهما بعد ذلك السيّد كامارا مراراً في منزله وأكرمهما، جعل الله ذلك كلّه في ميزان حسناتهم جميعاً.

بعـد نحـو أسـبوع، عـادتْ الأمُّ والولـد إلى المستشـفى في أوّل موعدٍ لهما بعد العملية. وفي طريق عودتها، كانت قد اسـتفسرت عن مستشفى يقبل إجراء الختان، علمتْ الأمُّ أنّ المستشفى الوحيد الذي يقبل ختان الأطفال هو مستشفى «لي مورو Les Mureaux»، ولهذا قرّرتْ أن تتوّجه إليه لأجل ختان ابنها الذي كان قد بلغ لتوّه خمسـة أعوام. وصلت الساعة الرابعة للمستشفى تمّ إدخال الابن المستشفى

مساءً للحجز، وبعد إجراء فحوص الدم ومعرفة فصيلته قرّروا أن يُجروا له عمليّة الختان في الصباح الموالي. دخل الولد صباحاً لإجراء العملية تحت التخدير العامّ، وبعد ساعةٍ خرج مُستيقظاً ولله الحمد. وكانتْ الأمُّ الوحيدة في القاعة كالعادة، حيث تمّ ترك كلّ الأطفال وحدهم في غرفٍ أخرى. وقد لاحظتْ سقوط تلك الضمادات عن الأطفال المختونين، وكانتْ كلّما سقطتْ الضمادةُ عن الولد أرجعتها الأم وثبّتتها. في المساء، جاءتْ الطبيبةُ وعالجَتْ كلّ الأطفال ثمّ أمرتْ بإخراجهم. وقد حاولتْ أن تنزع الضمّادةَ عن الولد، ولكنها لاحظتْ أن نزعها يمكن أن يُساهم في كشط بعض الجلد، فطلبتْ من الأمِّ أن تستمرَّ في رشّها بالدواء بعد خروجهما حتى تسقط، ثمّ سمحتْ لهما، أخيراً، بالمغادرة.

وصلتْ الأمُّ والولدُ الحَيّ في باسي. ومن عادة أهل هذا الحي، لاسيما أولئك الذين كانوا حريصين على الحفاظ على بعض العادات الإفريقية والمغاربية نتيجةً لطول الجيرة بينهم كَمُلّاك منازل، أن يقيموا حفلاً للختان. وقد حاولتْ الأمُّ أن تثنيهم عن ذلك، فهي ضيفة عندهم، ولا ينطبق عليها ما ينطبق عليهم. ولكنّهم قرروا من ورائها تقاسم التكاليف ومفاجأتها بهذا الحفل. في صبيحة الغد، توافد الجيران عليها، وكان من بينهم من يحمل طعاماً، وآخررون كانوا يحملون المشروبات، وبعضهم يحمل هدايا للصبي. أقاموا

هناك حفلاً صغيراً، تتخلّله موسيقى وأغانٍ ورقصاتٍ متنوّعة، تارةً مغربية، وتارةً أخرى موريتانية وإفريقية!

في المساء بلّلتْ الأمُّ الضمادةَ ونجحتْ في نزعها. وبعدها لاحظتْ أنَّ موضع الختان متورِّم، وأنّ الصّبي يُعاني من الحمّى ومن آلام سبّبها له الختان. توسّلتْ لِتسكين تلك الآلام بالدواء، ولكنَّ المرضَ اشتدَّ عليه في مساء ذلك اليوم، الأمرُ الذي اضطرَّ الأمّ للذهاب مع مضيفتها إلى الطبيب الوحيد في القرية. وكان من سوء حظِّها أن وجدتْ عيادته مغلقةً. ذهبتا إليه في منزله المعروف لدى سكان الحي كلّهم. وبعد أن فحص الطبيبُ الولدَ، دوَّن له وصفةَ دواء. وعندما أدرك أنَّ الصيدلية الوحيدة هناك مغلقة هي الأخرى، ركبَ درّاجته الهوائية ورافقهما إلى منزل مالكِ الصيدلية الذي ذهب بدوره معهم لفتح الصيدلية، لِيمدّهم بالدواء اللازم. لا يمكنها أن تنسى صنيع هذين الطبيبين، فَهما قد ضربا لها مثلاً رائعاً في الرحمة والإنسانية!

قرية باسي التابعة لمدينة إيفرو هي قرية لطيفة، مركزها لا يتعدّى الكيلومتر الواحد، تحتوي على مجمع تجاري كبير وحيد ومحطّة بنزين واحدة وفندقين، وبحيرة تشقها. أمّا سكّانها الذين يقطنون الأحواز، فَهم يبعدون مسافة كيلومتر وأكثر عن مركز المدينة. وقد كان بعضهم يسكن الهضاب التي تحيط بها غابة يكثر بها عباد الشمس. وعند صعودك لإحدى هضاب الحي، تترآى لك غابة عباد الشمس

بزهورها الصفراء التي تُزاحم الشمس بهاءً، ومزارع تنمية مخصّصة لتربية البقر. كان سكّانها يبيعون اللبن والجبنة، وتقام فيها أسواق دورية أسبوعية في قرياتٍ مُجاورة يُباع فيها كلّ ما هو جديد وقديم من أغراض. وقد سكنها خليطٌ من الأفارقة والمغاربة المهاجرين قديماً. ولعلّ ما أثار استغراب الأم، ونال استحسانها هو تشكل خليط من العادات لدى ساكنة الحي المهاجرين،من بينها أنّ الضيفات يدخلن المطبخ أولاً حتى يساعدن ربّة البيت في ضيافتهن. وعادةً ما تكون الزيارات مسائية على الساعة الخامسة أو السادسة مساءً. وهكذا، فقد كنّ يُحضِّرن معها الوجبات الخفيفة المسائية للضيوف كما يسمّونه «لمسمن»، وهو نوع من الأكل يتناولونه على سفرة المطبخ ثم يَشربن القهوة ويُنظّفن المكان. وبعدها يَدخلن الصالون لِمتابعة فيلم أو تبادل أطراف الحديث والاستماع للموسيقى! كما كان السكّان يقومون بالأعمال اليدوية كلّها بأنفسهم، نظراً لغلاء ثمن العمالة اليدوية هناك، وأحياناً كانوا يتعاونون في هذا الأمر، حتى إنّ الرجل منهم بعد انتهاء دوامه يساعده ابنه أو أبناؤه في أعمال الصيانة والبناء، إن كان يريد تعديلاً في منزله أو بناء طابق فوقه، أو إبدال أقفال بيوتهم، كما أنّهم يَطلون منازلهم بأنفسهم، وترى النساء تَقصُّ الأعشاب المنزلية بآلة قص العشب!

عندما رجعتْ الأمُّ إلى الأسرة قادمةً من موعدها الباريسي، كانتْ صديقتهـا وزميلتها التـي كانت أوّل من قدّمتها لـلأسرة، قد عادتْ هـي الأخرى مـن مدينة ليل وأقامتْ معهـم، و أصبحتا تَخرجان مع ربّـة الأسرة أحياناً للتبضّع في الأسـواق الأسـبوعية وأحياناً أخرى إلى مدينـة إيفرو. وكانت ربّة البيـت إذا أرادتْ شراء كميّةٍ كبيرةٍ من اللحم، تذهبُ معهنّ لِضاحية «مانت لاجولي Mantes-la-Jolie»، القريبة من باريس، التي يوجد بها هي أيضاً سـوق أسـبوعي، وهي مدينة جلّ سكانها مغاربة وخاصة من الصحراويين!

بعد أسبوعين أو ثلاث، بدأتْ الأمورُ تسوء، ذلك أنّ ربّة الأسرة طلبتْ منهما المساعدة بشكلٍ منتظم في دفع مصاريف الأسرة، (كانت هناك مسـاعدات ولكن غير دائمـة). وقد وجدتْ الأمُّ الطالبة ذلك الطلـب منطقيّاً، ذلك أنّهـا ربّة أسرة تتكوّن من أفـراد عدّة، وتعيش على المسـاعدات الاجتماعيـة التي تُعطيهـا الدولة لـكلّ المتقاعدين، وأب الأسرة كباقـي الجـيران مـن المهاجريـن القدامى الذيـن كانوا يعملون في مصانع السيارات، وقد بلغوا سن الإحالة على المعاش.

أمّـا زميلتها، فلم تستسـغْ ذلك الأمر بسـبب ارتباطاتها بالأسرة هناك وفي موريتانيا وبسـبب المودّة التي كانت بينهم. وقد طلبتْ من صديقتها الأم الطالبة ألّا تقبل ذلك الأمر. حاولتْ الأمُّ أن تتماهى مع زميلتها إرضاءً لها، لكنّ منطق الأشياء يفرض القبول بالأمر الواقع؛

فربّة البيت لم تعُد تتقبّل فكرةَ عدم تقاسم المصروف معها، وربّما هي لا تقدر على تحمّل ذلك كلّه وحدها، والأم لا بديل لديها عن تقاسم المصروف، فهو أخفّ من التكفل بالنفس وخاصةً مشكلة السكن!

من هنا بدأتْ المشاكلُ في الظهور. فقد قبلتْ الأمُّ الأمر الواقع، وتكفّلتْ بما عليها من شراء الحاجات الأسبوعية كلّها، أمّا صديقتها فقد انزعجتْ من هذا الأمر، واتهمتْها بإفساد ما كانتْ عليه الأمور سابقاً بينها وبين الأسرة، ثم غادرتْ المكان. ولكنّ ربّة البيت ندمتْ على صنيعها بعْد مدّة، وقالتْ إنّ الزميلة التي غادرتْ وزوجها من أقاربهم، ويحُزُّ في نفسها مغادرتها، ولولا مجيء الأم وولدها والتكاليف الزائدة لما حصل الذي حصل. سمعتْ الأمُّ ما قالتْه ربّة البيت، ولكنها لم تردّ ببنت شفة. وفي الصباح، وقبل ذهابها للموعد الذي حُدّد لها في المستشفى بباريس، رتّبتْ بعض الأغراض التي كانت قد اشترتْها في صندوقٍ كبير أودعتْها إيّاه، وحملتْ الحقائب وجعلتْ الولدَ على عربته، وقرّرتْ المغادرة بلا عودة، ثم خرجتْ بِصمتٍ ودون أن تُشعرهم بذلك، لكن إلى أين؟ لا تدري أيّ وجهةٍ ستسلكها بعد خروجها من المستشفى، وضيق ذات اليد زادَ بعْد المشاركة في مصروف الأسرة!

(25)

أصرّتْ الأمُّ الطالبة على ألّا تعود للأسرة و«يمين الحُرِّ في صدره»، ثم غادرتْ فجراً تجاه باريس للقاء الطبيب الذي أَبدل نصف الجبيرة الملفوفة بضماداتٍ بعدَ شفاء الجرح بجبيرةٍ أخرى يُمكنه المشي عليها. أمضوا نصف يومٍ في مستشفى القدّيس فنسان لبولس

وعندما حانَ وقت الخروج من الحجز نصف اليومي، اتّصلتْ بإدارة المستشفى وطلبتْ منهم توفير سكنٍ من السكن المخصص للمرضى الذي يوفّره المستشفى أحياناً، لكنّهم أخبروها أنّ الغرف كلّها محجوزة في الوقت الحالي، وكانتْ إجابتها بأنَّها والولد لا يعرفان أين يتّجهان، وليستْ لديها إمكانيّة لإيجار الفندق، وهي تريد المساعدة في البحث عن سكنٍ يَليق بظروفها. وقد اتّصلتْ، في الوقت نفسه، بالأهل في نواكشوط وأخبرتْهم بوجودها في باحة المستشفى، وأنّها لا تدري إلى أين ستذهب، ولا تَملك ما تؤجّر به ليلةً في الفندق. استجاب لها الأهل، وأبدوا استعدادهم لإرسال مبلغٍ ماليّ لها، ولكن دون جدوى، إذ لا توجد وسائل الإرسال السريع

آنـذاك، ولا بـدَّ مـن انتظـار أوّل طائرةٍ متّجهـة إلى باريـس بعد أيام لإرسال النقود. كانتْ إدارةُ المستشفى تبحثُ من ناحيتها عن طريقةٍ لحلّ هذا الإشـكال. وبعْدَ إجراء اتصالاتهم، أعطوها عنواناً في حيّ «بيرسي Bercy»، يُسـّمى مركـز 24/ 24، اتَّصلوا بالمسـؤولين فيه، وأبلغوهم بقدوم الأمِّ والولد، وأعطوهم الأسماء ثم سلَّموا العنوانَ للأم التي وصلتْ إلى المركز على السّـاعة الرابعة مسـاءً. وبعدَ القيام بالإجـراءات اللازمة، أُدخلتْ قاعةً بها خليطٌ من الجنسـيات ذكوراً وإناثاً ومن بينهم بعض الصوماليات، وأُسر من البوسـنة والهرسـك ومغاربة وأفارقة. وبعدها بدؤوا في تقديم العشـاء، لكنّ الأم الطالبة لم ترغب في أكل ما قدّموا لها، وطلبتْ إذناً للخروج من أجل البحث عن أكلٍ خارج المبنى في أحد المطاعم.

تَجاذبتْ الأمُّ أطراف الحديث مع النسـاء الصوماليات اللاتي كنَّ يَتحدّثـن العربيـة، فأخبرنهـا أنهنّ جِئن فـراراً من الحـرب الدائرة في الصومال، وقد تمَّ استقبالهن في هذا المركز.

ولّما حان وقت النوم، تمَّ توزيع اللاجئين على قاعاتٍ تحتوي على أسرّة عـدّة، على شـكل أزواج أحدهـم فوق الآخر، وقـد منحوهما سِريريْـن. تمنَّتْ لو كانتْ الصوماليـات رفيقاتها في الغرفة، لكن تأتي الرياح بما لا تشـتهي السّفن، وإذا بآخرين غرباء ينامون على الأسرّة المقابلة. فكّرتْ إن كان عليها أن تجعلَ الولدَ في السرير الأعلى، أم في

ذلـك الذي هو في الأسـفل، إذ هي خائفة أن يسـقط من الأعلى، كما أنّهـا خائفة عليه أيضاً من نزلاء القاعة. قرّرتْ، في النهاية، أن تضعه في السرير أسـفلها، وتنام هي في السريـر العلوي. لم تنمْ ليلتها تلك، فقد ظلّتْ تُراقب الولدَ خوفاً عليه، وخوفاً على نفسها أيضاً!

(26)

في صباح اليوم الموالي، طلبَ المركزُ من النزلاء المغادرة ليعودوا على السّاعة الرابعة مساءً. وكانتْ توجد عند ممرّاتِ الخروج طاولاتٌ عليها قطع خبزٍ ومكعّبات من الزبدة والمربّى والجبنة. كانتْ الأمُّ الطالبة وولدها يتعفّفان عن ذلك كلّه، ويتركانه لمن هم أضعف منهما حالاً، وكانتْ هي تمرُّ بأقرب قهوةٍ لتأخذ مع ابنها فطورهما، ثم يتوجّهان لِنهر السين القريب من المركز، لِتجلس هناك بعض الوقت، وأحياناً كانت تذهب إلى محطة «باربيس روششوار Barbès Rochechouart-»، أو إلى حديقة اللوكسمبورغ، حيث كانتْ تُمضي هناك بعض الوقت حتى يحين موعد الغداء، ثم تَجلس في مقهى إلى غاية السّاعة الرابعة لتعود للمركز من جديد، والدموع تفيضُ من عينيْها. كانتْ تكتمُ عن الولد ما تَشعر به من مرارة الغربة، وكانتْ تَدخل القاعة وتُجالس أولئك النسوة الصوماليات اللاتي كنَّ، على عكسها، فرحاتٍ بما آلْت إليه أوضاعهنَّ في المركز. سبحان الله «مصائُب قومٍ عند قومٍ فوائدُ»! كانتْ إحداهنَّ تَنتظر

إنجاب ولدٍ في فرنسا لِيحمل بذلك الجنسيّة الفرنسية التي ستمكّنها بعد ذلك من نيل الجنسية التي ستمنحها فيما بعد بعض الامتيازات الخاصة.

أمضتْ الأمُّ الطالبة وولدها ثلاثة أيام في هذا الروتين، دون أن يغمض لها جفن. وكان أهلها في نواكشوط يَبذلون قصارى جهدهم من أجل مساعدتها، يَجرون الاتصالات ويقومون بالتحرّكات. وفي اليوم الثالث، اتّصلَ بها أفراد عائلتها، وأعطوها رقماً لتتصّل به، فإذا به ربّ أسرة وزوجته. وهما أقارب لِصديق أب الولد الذي يُعالَج، وقد طلبا منها أن تُحدِّدَ لهما مكانها ليأخذوها معهما إلى منزلهم، وقد حملا لها مبلغاً مالياً وصلهما من نواكشوط.

ذهبتْ بالولد معهما إلى منزلهما الكائن في مانت لا جولي. وكان أبُ الأسرة على قدرٍ عالٍ من الأخلاق، مِضيافاً وذو علاقةٍ وطيدة بمن طلب استضافته للأم والولد. أمّا زوجته، فهي هادئة غير بشوشة، ولكن تعاملها معهما كان لائقاً هي الأخرى. أعطوهما غرفةً مستقلّة في بيتهما، ولم تكن الزوجة تُكثر الحديث مع الأم الطالبة، وحتى عندما كانتْ هذه الأخيرة تُبدي استعدادها لمساعدتها في الأعمال المنزلية كانتْ هي تمتنع عن ذلك. عرفتْ فيما بعدُ السبب؛ فالفرنسيون هجَروا الحيّ هجراناً نهائياً، وامتلأ بالأفارقة والمغاربة وخاصةً الصحراويّين الذين يُعدُّون من أغلبيّة سكانه، وجلّ أرباب

الأُسر قد أُحيل إلى المعاش، وانقلبوا إلى تجّارٍ يَتجوّلون بين نواكشوط وفرنسا لِبيع قطع غيار السيارات، وقد تزوج أغلبهم في نواكشوط على زوجاتهم. فهنَّ، إذن، يَعتبرن أنّ النساء الموريتانيات لسنَ مؤتمنات على أزواجهنَّ ولا يرتحن لهن، كل واحدةٍ تنصح الأخرى بالحذر منهن!

(27)

حاولـتْ الأمُّ التقـرُّبَ مـن مضيفتها، ولكـن دون جدوى. وقد فهمـتْ الأمُّ الطالبـة أنّ المشـكلة ليسـتْ في مضيّفتها، إنّـما في أختها الجارة التي سـبق لِزوجها الزواج في نواكشـوط. كانت أختها الأكبر سـنّاً، وكانتْ مفلجة الأسنان، وقد دأبتْ على زيارة أختها باستمرار لتأنيبها وتحذيرها. أمّا ربّة البيت نفسها، فيبدو أنّها طيبّة الطبع. قرّرتْ الأمُّ أن تـزور الأخت كَجارة لهـم لعلّها تُتيح لها فرصة التعرّف إليها أكثر وتُقدّم لها نفسـها على أنّها امـرأة متزوّجة تكافح من أجل علاج ابنهـا. كان كلّ مـا تتمناه هو العيش بسـلام، وتسـهيل مهمّتها. لقد زارتهـا ذات مـرّةٍ فوجدتها تكوي ملابسَ كثيرةً فسـاعدتها طويلاً في الكيّ، لكنّ ذلك كلّه لم يُجدِ نفعاً، ولم يَترك أثراً. وقد اسـتمرّ تخوّفهما وخاصة المضيفة الحذرة التي كانت حريصة دوماً على أن تأخذ مسافةً مـن ضيفتها الأم الطالبة! وبعْد مرور فـترةٍ ظلّتْ فيها الأمُّ لا تعرف أحداً من أهل الحي، الذين كانوا هم بدورهم لا يرغبون في معرفتها ويَظهـر ذلك في زيارة نسـوة الحـي لمضيفتها. تقبلـتْ الأمُّ مصيرها،

وانعزلـتْ في غرفتهـا، حتـى أصبحـتْ لا تُغادرهـا إلا للـضرورة القصـوى. وفي تلـك المدّة، اتّصلتْ بها صديقةٌ لهـا وأخبرتْها أنّ أختاً عزيـزة وجـارةً قديمةً لها في نواكشـوط قد وصلتْ إلى فرنسـا لزيارة ابنها الذي يسكن فرنسا للاستراحة وإجراء بعض الفحوص. طلبتْ الأمُّ مـن صديقتها أن تبحث لهـا عن رقم هاتف الجارة القديمة التي هـي بمنزلة فردٍ من الأسرة نظـراً إلى الارتباطات الوثيقة التي كانت بينهـم. وقد حصلتْ على عنوانها، واتّصلـْت بها وأخبرتْها بوجودها في باريس لأجل علاج الولد، وأنّها سـتأتي إليها، وقد رحّبتْ بها أيّما ترحيب. تنفّسـتْ حينهـا الأم الصّعداء، وأخـبرتْ الأُسرةَ أنّها تريد الانتقال إلى منزل أختهـا وجارتها القديمة في موريتانيا التي وصلتْ حديثاً إلى فرنسـا. وقد سـمحوا لهـا بذلك، بل إنّهم قـد رافقوها إلى الجارة والأخت وتناولوا معهم الشّاي، وقدَّمتْ الجارةُ بعض الهدايا لزوجـة الرجـل. وقد عادتْ حينئـذ المياه إلى مجاريهـا والحمد لله! في ذلك الوقت، شرعتْ الجامعةُ في التحضير لافتتاح السـنة الدراسيّة، وكان لا بدّ للأمّ من التسجيل في مدينة ليل. ولذلك تركتْ الولدَ مع الجارة وسـافرتْ صباحاً إلى مدينة ليل، حيث أمضتْ وقتاً طويلاً في إجراءات التسجيل. وبعد الغداء مرّتْ بغرفتها في «إقامة إيفاريست غالـوا Résidence Evariste Galois»، فـإذا بحادثةٍ جدّتْ هناك، حيث تمّ طعن طالبٍ في الطابق الذي توجد به غرفتها. وقد اتّصلتْ

«المشرفةُ على المبنى concierge» بالجهة المعنية، وببعض المتجمهرين. خافتْ الأمُّ هول المشهد، وقرّرتْ السفرَ، رغمّ أنّها كانتْ بحاجةٍ لأخذ قسطٍ من الراحة قبل مواصلة السفر. وصلتْ إلى محطة المترو، وحين صعودها العربة ضمن جماعةٍ من المسافرين، أحسَّتْ بِشخصٍ قد احتكّ بها. التفتتْ، فشاهدت حافظة نقودها الصغيرة بيد شابٍ يبدو أنه سرقها، وتراجع للنزول من المترو. ودون أدنى تفكير، سارعتْ إلى شدّ لِباسه من العنق، وقد أغلق المترو على يديها. ومن عادة المترو حين يُغلق على جسم ما أن يفتح أبوابه أوتوماتيكياً. انفتحتْ أبوابُ المترو لتقفز إلى الشخص الذي ما زالتْ تشدُّ مَلابسه من العنق وقد رمى حافظة النقود لصديقٍ له واقف في المحطة. أخذتْ تصرخ وتنادي به: «أعطني حافظة نقودي»، فأجابها: «ليست عندي، بل هي عند ذلك الرجل». لم تستطع أن تفلته لتلحق بالرجل الآخر، خشية هروبهما معاً. وكان الكلُّ يَنظر دون أن يُحرّك ساكناً. لم يكن أيُّ أحدٍ من رجال الأمن في المحطة وقتها، وكان كلّ ما بحوزتها من نقودٍ موجود داخل تلك الحافظة!

(28)

بعد أنّ ضيّقتْ الأمُّ الطالبة الخناقَ على السارق، وأكثرتْ الصراخَ مطالبةً بمحفظة نقودها، أشار السارق إلى صديقه برمي المحفظة باتجاههما، فسقطتْ غير بعيدة منها. ولكنّ الأم لم تكن ترغب في أن تُطلق سراحَ اللصّ قبل أن تُمسك المحفظة وتتأكّد من محتواها. انحنتْ وهي تشدُّ ملابسه من حول العنق بيدٍ واحدة، وانحنى هو معها حتى أخذتْ حافظةَ نقودها بيدها الأخرى وفتحتْها فإذا بالذي فيها من مالٍ لم يَنقص منه شيء، وحينها أفلتتْه. في تلك اللحظات، توقّف مترو آخر فصعدتْ وجلسْت في مقعدٍ تَستحضر المشهد السّابق. غرقتْ في التفكير، وتساءلتْ لمَ فعلتْ ذلك كلّه؟ كان بإمكانهما قتلها لو أرادا ذلك، ولن يحرك أيٌّ من الركّاب، على كثرتهم وقتذاك، ساكناً! بل لن ينظر إليهما أيٌّ كان! لماذا خاطرتْ، إذن، بنفسها من أجل بعض النقود؟

بينما هي غارقة في التفكير، انتبهتْ لمكبّر الصوت وهو يردّدُ حديثاً مفاده أنّهم وصلوا إلى «المحطّة الأخيرة terminus» على ذلك الخط.

استيقظتْ الأمُّ من شرودها، ونزلتْ باحثةً عن مترو آخر (راجع) مُتّجه نحو خط محطّة ليل، ليعود بها إلى نصف ما قطعتْه من طريق.

وصلتْ الأمُّ محطةَ مدينة ليل، ثم أخذتْ القطارَ في اتّجاه باريس. وصلتْ، والحمد لله، باريس، ومنها ذهبتْ إلى منزل الأخت والجارة ليلاً.

بعد أيام كان موعد الولد الأخير مع البروفيسور سورنج في مستشفى القدّيس فنسان لبولس. وقد كان الولد، بالمناسبة، يناديه دوماً بـ البروفيسور «سانج! singe»، وكان البروفيسور كثيراً ما يضحك ويقول: « أنا لست كذا» أي لست «قرداً singe»، «أنا اسمي سورنج».

جاءتْ الأمُّ باكراً وسلَّمتْ الطفلَ إلى الممرضات اللاتي اتّجهن به لغرفة العمليات، حيث نزعوا عنه الجبيرة و«القطعة المعدنية la broche». كانتْ الأمُّ، منذ ذهابهم به، تبكي في الغرفة وحدها وتَتضرّع لله تَبارَكَ وتَعالى أن يفرحها في رؤيته وقد شُفي تماماً. إنَّ كلّ ما عانتْه من مشاكل هيِّن في سبيل ذلك. وعند الثالثة ظهراً، أدخلوا عليها الولد في الغرفة فإذا به قد تَماثل للشفاء، وقد أعطوها بعض التعليمات. خرّتْ الأمُّ ساجدةً لله تَعالى باكية، ما أكرمَ ربّ العالمين وما أرحمه!

غادروا مساءً وكأنّ الدنيا حيزت لهم بحذافيرها، وبدأتْ تفكّر في كيفيّة السّفر إلى نواكشوط لتتابع دراستها من هناك. لقد سئمتْ الغربةَ وكآبةَ السّفر. حجزتْ ليوم محدَّد، وتركتْ الولدَ مع أختها وجارتها الوفيّة لتسافر هي إلى النورماندي، وتحديداً إلى باسي، حيث توجد الأسرة الموريتانية التي كانت تَضيفها لتأخذ بعض الأمتعة التي أودعتها عند ربّة المنزل. وجدتْ عندهم بعض تجّار قطع غيار السيّارات الذين دأبوا على النزول دوماً ضيوفاً عندهم. ألحّتْ ربة البيت على الأم لِتبقى حتّى موعد العشاء، وستطلبُ من أحد الإخوة الذين يملكون سيارة أن يوصلها لِمانت لاجولي كي تأخذ بعض الأغراض التي تركتْها عند الأُسرة الأخرى التي استضافتها هي بدورها، ولتبيتَ ليلتها هناك حتى الصباح. وعند الساعة الثامنة والنصف ليلاً وصلوا عند الأسرة في مانت لاجولي. انتظرها الموريتاني لأنّه كان يحمِّل بعض الأمتعة حتى تُنزِّلها من سيّارته. قرعتْ البابَ ولكن لا أحد يفتح. سمعتْ بعض الحديث، ولمحتْ ضوءاً في المنزل. قرعتْ مرّةً أخرى، وأخبرتْهم أنّها فلانة، ولكن دون جدوى. نزلتْ من السلالم وهم في الطابق الأوّل. وفي الجانب المقابل للشارع، أخذتْ تَرمي بابَ البلكون ببعض الحجارة عسى أن يَسمعوها، ولكن شيئاً لم يتغيّر. سألتْ الرجلَ إن كان يُمكنه أن يُعيدها إلى الأُسرة التي كانت عندها، ولكنّه أخبرها بأنّه لا

يمكنه فعل ذلك، ولكن إن تطلّب الأمر يُمكنه أن يَحجز لها غرفةً في فندق حتى الصباح. وقد علّل ذلك بأنّ لديه أعمالاً في مانت لا جولي وضواحيها. رفضتْ الأمُّ العـرضَ، وفجأةً فتحَ ربُّ الأسرة البابَ، ورحّبَ بها بحفاوةٍ كبيرة

دخلـتْ الأمُ الطالبـة بسرعـةٍ إلى غرفتهـا سـابقاً وأغلقتْهـا عـلى نفسـها، فوجدتْ أمتعتها حيث تركتْها، بعدها سـمعتْ مُلاسنةً بين الزوجـيْن في غرفتهما، ثـم هدأ الحال. نامـت الأمُّ الطالبة تلك الليلة هنـاك، وفي الصباح الباكر حزمتْ أمتعهـا وخرجتْ، فإذا بالأب في صالونـه يَحتسي الشّـاي كعادتـه في الصباح الباكر. اعـترضَ طريقها وطلـبَ منهـا ألا تذهـب قبـل أن تَتناول الفطـور، فهي لديهـا متاع كثير، وسَـيقوم هو بإيصالها بعد ذلـك إلى محطة القطار. أصرّتْ الأمُّ عـلى الذهاب ذلـك الوقت. ولكنّها لاحظـتْ أنَّ ملامحَ ربّ البيت قـد تغـيّرتْ، واكفهرَّ وجهه ثم قال: «نحـن الفلانيّين لا يذهب أحد مـن عندنـا بُكرة. تلك عاداتنـا، لازم تأخذي الفطـور ثم تذهبي إن شـئت». وقد طلبَ منها دخول الصالون الذي لم يسـبق لها دخوله، ثم جاءتْ زوجته ورحّبتْ بالأم وجاملتْها أحسـن مجاملة، وجلستْ بجانبهـا ثم أحضرتْ لها فطور الصباح، وأرفقتْ ذلك بهديّة للولد. وبعـد الانتهاء من شرب الشـاي، قـام الرجل وزوجتـه بإيصالها في سيارتهما إلى محطة المترو، وهناك قاما بِتوديعها. وصلتْ الأمُّ إلى أسرة

الأخـت والجارة في باريس، وفي يوم الحجز سـافرتْ إلى نواكشـوط بعد أن شُفي الولد تماماً ولله الحمد والشكر!

(29)

في الختام، للإجابة عن السـؤال الآتي: من هي تلك الأم الطالبة؟ كان مـن اللازم عليّ الانتظار حتى إنهاء كتابـة فصول القصّة كاملة، حتى أتمكّن من الإجابة عنه. إنّ هذه القصّة واقعيّة، وهي تدخل فيما أصبح يُسمّى بِـ«أدب الرحلات». أمّا عن صاحبتها، فهي كاتبة هذه القصـة ذاتهـا. ولقد أصبح ذاك الولد رجـلاً ولله الحمد والمنة، يحمل شهادةً جامعية ويعمل في بنك في نواكشوط.

أنوه إلى أن محنة الطالبة بفضل الله أولاً، وبالصبر والعزيمة انقلبت إلى منحـة: صلـب عـودُ الام بالتجربة، روضتها المحـن، وأصبحت تـرى الحياة بعين المُتبصِّر المجاهـد، وارتكزت فى ذلك على ما تعلَّمتْه على متن سفينة الحياة التى مخرت بها عباب محيطٍ متلاطم الأمواج،

لقـد أردتُ من خلال هذه القصة الواقعيّة أن أسـلّط الضوء على تضحيـة الأمّهـات الطالبـات والعاملات، وأن تكون القصّة درسـاً للنساء جميعهنّ، خاصة منهنّ الفتيات، مفاده أنّ الحياة مليئةٌ بالمطبات والأشواك و«الدهر يلد بلا ضرع»، ولكن بالعزيمة والصبر والمثابرة

تُذلّل الصّعاب كلّها، وننال الهدف، وأنّ همّة المرء أقطع من السّيف، وما علينا إلا أن نشحذها بالإصرار والعزيمة، كما أنّه يُمكن للمرأة التغرّب والاعتماد على نفسها وتأدية أدوار مختلفة في آنٍ واحد وبكلّ احترام، إذ ما عليها إلا أن تكون مكافحةً لتنال حقّها وتحقّق أهدافها المنشودة. وبالمناسبة، فقد تابعت الأمُّ دراستها في جامعة نواكشوط، ثمّ واصلت دراساتها العليا في جامعة «غاستون بيرجير Gaston Berger» في مدينة «القديس لويس Saint-Louis» في السينغال وهي الآن موظفة.